لعنة الواقف

رواية

بسام شمس الدين

الفصل الأول

كانت قصتنا ستدفن إلى الأبد لولاك أيها الكاتب، ولكن لحسن الحظ أنك من أبناء القرية، لتكتب قصتنا بالشكل الذي يروق لك، أما أنا فلست سوى قرويٍ عرف القراءة والكتابة في المعلامة[1]، لذا لا أستطيع أن أقاوم الأخطاء،بما في ذلك الانحراف عن مسار الأحداث،أما أنت فقد وهبت حظاً من الحكمة والمعرفة،كما نلت قسطاً من احتقار القرويين وسخريتهم، بل مازال البعض يظنك عابثاً خارجاً عن التقاليد والدين،وهؤلاء هم الذين جعلوا من بلدتنا مكب

[1] المعلامة: الكُتَّاب، وهي مدرسة قديمة لتدريس القرآن.

نفايات كبير، حتى أصبنا بشتى اللعنات،فقد تأتي المحن أحياناً من فاعل خير ،أو من الطبيعة أو من نتائج أفعالنا،وهذا بالضبط هو ما حدث في قريتنا التي يطلق عليها اسم "بيت الهادي"، فإياك أن تكترث لأقوال المنتفخين المتباهين بأنسابهم وممتلكاتهم أمثالي،أولئك الذين يعانون من وهم التفوق على الآخرين،وكما ترى فإن البراميل الفارغة تصدر ضجيجاً حين تتحرك،أرجوك.. اكتب على نحو أمين، هل نبدأ من اللحظات المحزنة التي دخلت فيها السجن عقب مقتل الفقيه عبدالقادر؟ أو من الأوقات السعيدة التي قضيتها مع عزيزة في الدار العتيق؟ أو من حيث شئت... لا تهتم باللهجة الدارجة والجمل غير المتماسكة التي أنطقها، فأنا لست

سوى قروي أخذ اللغة عن مجموعة من القرويين.. ولذا يمكنك تشذيب وتصحيح عباراتي عند الضرورة..

لعلك تدرك –لأنك من أبناء القرية–أني ولدت في منزل صغير داخل مقبرة، وأن قريتنا كذلك ولدت في مقبرة،أو لعل المقبرة هي التي دخلت في رحم القرية،ورغم ذلك كانت الأمور تسير على ما يرام،عائدات الحقول وفيرة،وضروع المواشي ممتلئة بالحليب والسمن.. وأذكر وجوه كثير من الشيوخ المتزرين بالمقاطب الغليظة،بينما صدورهم السمراء عارية غزيرة الشعر،وصلبة كأنما تقاوم تقلبات الفصول،كانوا يمرون صوب حقولهم في الوادي، عبر طريق جانبي صغير، يتسللون بحذر وهم يقرؤون "السلام عليكم دار قوم مؤمنين،أنتم

السابقون ونحن اللاحقون"،ثم يقفون طويلاً خافضي رؤوسهم، مرتلين أذكاراً لا نعرفها، وكنت ألتفت إلى الشيخ شيعان، وهو يخلع حذاءه ويمشي حافي القدمين على الدوام لاعتقاده بأن القرية هي في الأساس مقبرة، وعند المنعطف المؤدي إلى القبور المزدحمة يسير على رؤوس أصابعه محنياً رأسه وتالياً الأذكار، حتى يقفز على عجل إلى الممر المحيط بحقل البن الذي يملكه الأمين جوهد.. وقد كانوا كلما ألم بهم القحط يطوفون بالمباخر في أرجاء المقبرة، ثم يتركون عدداً منها تستقر تحت شجرة "عَرْم" كبيرة لتعطر قبر الولي صالح،والجزء الآخر يضعونه تحت قبة قبر السيد موسى، ثم يعودون إلى منازلهم وهم ينظرون إلى السماء برجاء، وعندما

لا يسَّاقط المزن فإنهم يتجهون للبحث عن"الصرفة"[٢] التي يضعها شخص حقود ليصرف المطر عن القرية، وأذكر أربعة شيوخ كانوا يجتمعون وقت الأصيل في عليتنا، يجلسون بالقرب من النوافذ يتأملون المقبرة والحقول، وينفثون أدخنة غلاييننهم المحلية إلى الخارج، في وسط المجلس موقد طيني وقهوة بن داخل قُلَّة فخار تغلي بهدوء على الجمر، وبعد أن يشربوا قهوتهم، يمضغوا قليلاً من القات[٣]الجيد، ثم ينطلقون عند انخفاض حرارة الشمس نحو الحقول لفعل شيء ما، وقد كانوا يملكون سمات فريدة لا

---

[٢]الصرفة: حذاء وقطعة خبز تنم عن البطر والجحود بنعم الله.

[٣]القات: شجرة واسعة الانتشار في اليمن، تُمضغ أوراقها، وفيها مادة منبهة تؤدي إلى السهر وفقدان الشهية.

يمتلكها الأهالي، وهي التي تجعلهم ذوي شأن، بحيث لا يجرؤ أي شخص على اقتحام مجلسهم دون استدعائه، فالمجلس مغلق على هؤلاء فقط، لأنهم مؤهلون لهذا الاجتماع، فهم أكبر الأهالي سناً، ويملكون ثمن التبغ وأغصان القات، ولديهم مواضيع شتى يتحدثون عنها، أكبرهم سناً ووجاهة هو جدي المالك مبخوت، والثاني هو أمين القرية جوهد،والثالث هو الشيخ شيعان الذي يحفظ الكثير من الطرائف ولطائف الأخبار والأشعار، والتي استلهمها خلال رحلاته الطويلة إلى المدن مثل زبيد وذمار وعدن.. والرابع هو الفقيه عزالدين الذي يغذي المجلس بالصلوات على النبي والأناشيد الدينية المتنوعة، على حسب المناسبات التي تصادفهم.. وحين يكون هناك أي

اختراق يطال المقبرة يستدعون أبي الذي يطلق عليه الأهالي صفة وصي المقبرة، وسرعان ما يأتي لينبئهم بما يحدث.. وكانت مهمته هي إحصاء الأضرار التي تصيب الموتى، والإفصاح عنها في اجتماع العلية.. ثم ينقل ما يحكمون به إلى الأهالي، الذين يسارعون إلى التنفيذ دون تردد.. وسأخبركم عن اليوم الذي دخلت فيه بمعجزة إلى قلب العلية، كان ذلك في الأسبوع الذي ماتت فيه أمي بمرض مجهول،حيث جعل الناس يمسحون رأسي بعطف لأني صرت يتيماً، والنساء كن يتبرعن بقبل على خدي ويذرفن الدموع، وازداد عطف أبي علي، ولكنه كان يبدو حزيناً كئيباً مذ كانت أمي على قيد الحياة، يقول الأهالي أن عمله وصياً للمقبرة جعل منه هذا الشخص، إذ

ليس سهلاً البقاء مع الموتى في مقبرة شاسعة.. وصادف في أيام المأتم، أن بقرة حمراء أفلتت من عقالها، وانطلقت رافعة ذيلها حتى اقتحمت المقبرة، ووضعت روثها على شاهد قبر، ورآها الشيوخ الأربعة وانزعجوا بشدة.. وحضر أبي إلى العلية مصعوقاً ناسياً أنه كان يجرني جراً نحو المجلس الموقر، لم ينتبه الشيوخ لمشكلة وجودي في ذلك الآن، لأن البقرة مازالت عالقة في المقبرة وتتحرك داخل دائرة ضيقة، قال أبي بارتباك قبل أن يُسأل:

– بقرة أحد الأهالي تدهس القبور، لم أجرؤ على الدخول لإخراجها..

–فعلت خيراً، ونحن لن نفعل شيئاً حتى يظهر صاحبها.. قال جدي.

–هل تُعاقب البقرة أم يعاقب صاحبها؟ سأل الأمين جوهد..

–هذا أشبه بقصة الناسك الثمل الذي لم يدرك أحد هل قدماه أم ذراعاه هما المذنبان.. قال الشيخ شيعان..

–ليس هذا وقت القصص، هناك مصيبة وسط المقبرة الآن. قال جدي مبخوت..

–أين صاحبها قصف الله عمره؟ سأل الفقيه عزالدين بضجر.

وفجأة ظهر العم منصور زاحفاً ببطء ناحية المقبرة حتى وقف عند بقعة لا يستطيع تجاوزها خطوة واحدة، ثم بدأ يرفع رأسه قليلاً باتجاه الدار العتيق، إلى أن استقرت عيناه على نافذة الطابق الرابع، وهنا وقع بصره على وجه جدي

مبخوت الملبد بالسواد، فجثا على ركبتيه، وأخذ يبكي طالباً الرحمة.. كان بكاء الرجال غريباً فجاً، ولم يسبق أن رأيت رجلاً يبكي قط، وسرعان ما أقبلت عمتي قبول متجهمة، شاهرة بين يديها كوماً مغرياً من البرسيم، لكنها كانت قوية وهادئة، على عكس زوجها الخائ ف، وجعلت تنادي البقرة بدلال عارضة عليها المكافأة، فانقادت سريعاً إلى كفها، فأخذتها بعيداً دون أن ترفع عينيها إلى نافذة العلية، ولحق العم منصور بالبقرة وفي يده غصن صغير يضربها به.. ونظر الشيوخ الثلاثة إلى وجه جدي مبخوت،والذي بدوره ألقى نظرة حازمة إلى وجه أبي المقرفص بخجل على السجاد وقال:

–اذهب إلى بيت منصور، وأخبرهم بأن يجلبوا البقرة غداً لتذبح إكراماً للموتى..

هز أبي رأسه وأراد أن ينسل قبل أن يتحول اللوم إليه، وكنت قرب الشمعدان النحاسي أتحسسه بفرح، ولا أدري أن وجه أبي يتقلب ألواناً لفرط الخجل، وكنت لا أعيره أي انتباه حين كان يعظ شفتيه لأتوقف عن العبث بمقتنيات المجلس، وما إن أمسك أبي ذراعي بقوة ليجرني نحو الخارج، حتى جاء صوت جدي الخشن:

–دع اليتيم في العلية.. واختفى والدي بعض الوقت،ثم عاد ليأخذني فسمع صوت جدي الآمر:

– دع اليتيم يؤنسنا في الدار ولتعتني به جدته.. فأذعن وانصرف دون أن يحتج.. ونام

لأول مرة وحيداً داخل منزلنا الصغير الجاثم وسط المقبرة.. وكان من المفترض أن تحتفي جدتي"فنون" بقدومي إلى الدار العتيق، ولكن أمر البقرة أثير عند ظهوري وجدي، ولم يكن بوسع أحد أن يجابه قراراته عداها، وحين أراد أن يعود أدراجه اعترضت طريقه وهي تقول:

-المالك مبخوت لا يفر عند سماع الشكوى..

-ابنتك قبول تركت بقرتها تقتحم المقبرة، هذا شيء فظيع..

-إنها تغذينا باللبن كل يوم، من العار أن نذبحها، لقد ذاب لبنها في جسدك، البقرة مثل الأم..

-كلا لن أرجع عن بقرة ابنتي..

–مبخوت، البقرة الحالبة يجر ذبحها الشؤم..

–لا أبالي وإن أدى ذلك إلى هلاكي..

وسحبتني جدتي، فتنازل عني، وصعد نحو العلية وهو غاضب، كانت جدتي تبكي.. ونمت إلى جانبها حتى الصباح.. وفي وقت مبكر رأينا البقرة على مشارف المقبرة، يمسكها مرزوق الحجَّام[1] وهو عاري الصدر والسيقان يستر وسطه مئزر رث، وفي كفه مدية حادة، وحضر الشيوخ الأربعة، وشرع الفقيه عز الدين يتلو بعض الأذكار الضرورية قبل الذبح، وبدت عمتي قبول متماسكة الأعصاب هذه المرة أيضاً، وغير مبالية كعادتها،

---

[1] الحجّام: هو جزار وحلاق القرية.

فيما بدا العم منصور حزيناً منهاراً يسنده رجلان من الأهالي، وخرجت النساء لرؤية ما سيحدث، وقلوبهن تقطر دماً على هذه البقرة الحالبة، وحينما ينظرن إلى ضرتها الممتلئة يلطمن وجوههن جزعاً عليها.. حتى كدن يندفعن لتخليصها. وعند هذه الوهلة، أعطى جدي مبخوت أمره إلى مرزوق،ثم انصرف تجنباً للحرج.. وتم توزيع اللحم على الأهالي ولكنهم رفضوا أن يمسوه، وألقوه للكلاب..

وأراد جدي مبخوت أن يشغلني بشيء ما، فألحقني بدروس الفقيه عز الدين، إلى جانب ثلاثة فتيان كبار هم صويلح ابن الأمين جوهد، وعبدالقادر ابن الفقيه وحسن الطويل، فأخذت لوحي الخشبي وانطلقت إلى المعلامة بنشاط،

وحين أعود كنت أرى أبي ينظر إلي شزراً ولا يحاول الاقتراب مني، وكأنه تنازل عني للرجل الذي يهابه الجميع، بل بدا وكأنه آثر أن يتألم بسبب ابتعادي عنه مقابل أن أحظى ببعض الامتيازات، فقد حرم من العيش الرغد رغم أن والده مبخوت هو أكبر مالك حقول في القرية.. عمتي قبول هي الأخرى اقترنت بفلاح بسيط يعيش على الكفاف وهو العم منصور، وليس هناك من يشربون القهوة المذابة بالسكر، أو يأكلون اللحوم في وجبة الغداء سوى سكان الدار العتيق، ولكن جدي أصيب باضطراب النوم، وذات ليلة سمعنا صراخه يأتي من العلية، وهبط إلى حجرتنا وهو يقول:

-أتاني كابوس رهيب..

–ماذا جرى لك؟سألته جدتي بفجيعة..

–حيوان يطاردني.. أجاب وهو يرتشف جرعات من الماء البارد..

–لقد نصحتك أن تدع البقرة وشأنها ولكنك أبيت.. قالت بأسى.

ونظر جدي إليها نظرة خارقة، ومضى مكابراً نحو العلية، واستمرت الكوابيس تحاصره في نومه، حتى هزل وشع الخوف في عينيه، ثم أصيب برعاش شديد لجأ إثره إلى الاتكاء على عصا، وتسربت معلومات عن أن بقرة عمتي قبول تطارده كلما أغمض عينيه، وأتى اليوم الذي أتيت محمولاً على أعناق الصبيان، واستقبلنا الأهالي مهنئين على حفظ وتجويد جزء (عمَّ) والقدرة على القراءة والكتابة.. واستضاف جدي الأهالي وذبح

ثوراً.. وكان في الآونة الأخيرة قد بدأ يشعر أن جسده أخذ يخذله أكثر، حتى أقعد في العلية. وأتى أبي ليخدمه.. ومكث هكذا حتى مات. وانتقل أمر الدار إلى جدتي فنون، ومن بعدها انتقل إلى أبي الذي علمني مهنته، وتم ذلك بعد خمس عشرة سنة على موت جدي مبخوت.. كان هناك كثير من التغيرات قد حدثت، الشيوخ الثلاثة الآخرون ماتوا، وأصبح صويلح جوهد هو أمين القرية، وعبدالقادر أخذ مكان والده في المسجد.. وأنا مازلت أنتظر دوري لأكون وصي المقبرة.. بينما ظل أبي يمارس مهنته بصمت قل نظيره، ولكنه حالما ينفرد بي كان يخرج عن صمته المعتاد، فيعلمني كيف أدفن العظام التي تخرج عند هطول الأمطار أو بفعل العابثين أو

الزمن، وكيف أميط الأشواك وفضلات الحيوانات عن شواهد القبور، وكيف أنحني سارداً الأذكار والابتهالات حين أعبر وسط المقبرة، وكيف أسير بين القبور متسللاً دون أن يلامس كعبا قدمي الأرض، وفي يوم من الأيام استدعاني بشكل سري إلى منزلنا الوضيع في المقبرة، كان متوعكاً يمشي بخطى ضعيفة، حتى وقف أمام صندوق قديم يسمى صندوق الأوصياء، وسرعان ما فتحه بتهيب وأراني جميع الوثائق المتعلقة بالمقبرة، وهي في الغالب تضم أسماء الحقول التي أوقفها أجدادي لتؤول غلالها لصالح المقبرة أوالمسجد، وأقدم الوثائق خطت قبل خمسة قرون، وتحتوي على وصية مالك قديم من أجدادي اسمه زيد الهادي أوقف أرضاً واسعة للموتى، وقرص أبي أرنبة

أذني حتى أدماها ولم يسبق أن فعل ذلك من قبل..

–انتبه يا ناصر أن تغفل عن هذه الوصية، أحس أني لست على ما يرام، وستنتقل إليك مهنتي.. قال محذراً..

–ما شأن هذه الوثيقة؟ أجبت متألماً بفعل القرص..

–إنها تحذير من أي أذى يلحق بالمقبرة، هذا هو مضمونها. قال بفتور.

وبعد أن وافاه الأجل، مكثت بالدار بضع شهور، ولكن سرعان ما أتت عمتي قبول لتقطن الدار بعد موت العم منصور، إذ–بموت أبي وزوجها–آل إليها الدور لتحل في الدار العتيق، ومن ثم أصبحت هي المسئولة عن أملاك العائلة

كما جرت العادة، فالأكبر يتسلم الدار والحقول، وهكذا انسحبت بهدوء إلى منزلي الوضيع، وانشغلت بمهام وصي المقبرة، فصرت أنقب عن سبب بناء القدماء في أرض الموتى.. وأمعنت النظر في الوثائق القديمة.. بما في ذلك الوصية الهامة، وكانت بالفعل مخيفة وقاسية،وعرفت سر اهتمام جدي مبخوت والشيوخ الثلاثة بالمقبرة.. لقد ولى ذلك العهد إلى غير رجعة، اختفت معظم العادات التي كنا نزاولها وآباؤنا، بما في ذلك عادة إطلاق أدخنة المباخر وسط المقبرة، وبفعل ذلك أهملت شجرة العرم حتى أوشكت أن تجف، وتكدست الأحجار داخل قبة قبر السيد موسى، ولم تفلح جهودي في إيقاف ذلك المقدار الهائل من الأذى الذي يصيب الموتى، على هذا النحو، أتى العهد

الجمهوري الغريب ذو المزاج المتقلب، وأتت الأجيال المجنونة المتحررة من أي التزام، فأخذ بعض الشبان يتوسعون في الأرض الموقوفة، ويبنون مساكن جديدة تحت وقع صراخي وتهديداتي، وأصبحت المقبرة مكدسة بالقوارير والعلب وقطع الكرتون وأكياس البلاستيك الفارغة، وأنذرت الحاج محمد تاجر القرية بأن ينقل دكانه إلى موضع في القرية خالٍ من القبور، ولكنه أبى، وقطع على نفسه عهداً بأن يحج إلى البيت الحرام كل سنة، وذلك من أجل أن تمحي ذنوبه ويعود نقياً من الآثام، وخلال العشر السنوات الأخيرة تحولت المقبرة إلى مكب نفايات كبير، تحوي أقذر ما يصنعه الإنسان وما يخرج من جسده.. وهكذا بت أسير كالمجنون محذراً الأهالي من مخالفة

وصية الواقف.. ولكن لا مجيب.. وأصبحت في نظر الأهالي وصياً ضعيفاً لا يملك شيئاً من السطوة والتأثير، ويمكن أن تتصوروا أن فتى من فتيان العهد الجمهوري يسألني محتداً:

-كيف تسمح للأهالي أن يبنوا فوق رفات أجداد القرية ثم تتحول الآن إلى واعظ ثرثار؟

واحتار كيف أرد على فتى غاضب، بحيث أعمل على تليين عريكته، لابد أن أبرئ نفسي من التهمة، كيلا أتعرض للقذف بالحجارة، **يابني**، لقد ورثت عن أسلافي مهمة الاعتناء بالمقبرة وأعرف الكثير من أسرارها، لكني اليوم لا أستطيع إرشاد الأهالي إلى قبور ذويهم بفعل العبث المستمر، وأمسى دوري مقتصراً على دفن الرفات

الخارج من اللحود، لقد اغتصبت أرض الموتى منذ زمن بعيد، ومازال العابثون من كل جيل ينتهكونها، وها هو هذا الجيل ينتهك أرض الموتى أكثر مما مضى، وقد وعظتهم وحذرتهم، وقرأت عليهم آيات من القرآن الكريم تثبت آثام مغتصبي أراضي الوقف وبيوت العبادة، بل تجشمت عناء البحث عن وصية الواقف بين أوراق كثيرة توارثتها عن أجدادي، وهي منقوشة بخط مكسر على جلد قديم متهالك، ومنظرها المتواضع لا يوحي إلى أن لها شأن عظيم، ولكن ليس هناك ما هو أشد رهبة وإيلاما للنفس مما فيها، وأنا أحفظها عن ظهر قلب لفرط ما قرأتها على الأهالي: **"أنا الواقف المالك "زيد الهادي" أوقف**

لله تعالى ولموتى المسلمين ألف (حبل عشاري) [٥] من حُر أملاكي ومن أطيان قرية "بيت الهادي"، وعينت عليها الابن الأكبر من سلالتي وصياً وحامياً، وللوصي كثير من الحظوظ والأملاك، ويعفى من تقليبها ورعايتها، ويؤول إليه خيرها، يتصرف فيها طوال حياته، ولا تنتقل إلى غيره حتى يوافيه الأجل، وعلى من يعتدي على الأرض الموقوفة أو يدنسها أو يغتصبها فلينتظر القليل من كل شيء، ولتحل في منزله الأحزان...".

وعلى هوامشها دعوات شديدة الوطأة بالأرق وقلة البركة بالمال والولد.. ورغم هذه اللهجة

---

[٥] حبل عشاري: مقياس محلي يساوي عشرة أذرع.

الصارمة، فقد تجاهل الأهالي تهديد الواقف، وأقاموا مساكنهم إلى جانب دارنا العتيق، ودور أخرى بنيت منذ زمن بعيد، من جهة أخرى، بدا هذا الجزء القديم من المقبرة مهملاً محطماً، وكأن الطبيعة تواطأت معهم مثلما تواطأ ملاك الأرض الذين رفضوا أن يبيعوا الأهالي أرضاً للبناء عليها، وطالما يلوموني على تشاؤمي المفرط، وخوضي في حديث محزن كهذا، ولكن ماذا علي أن أفعل؟ هذا هو العالم الذي أعيش فيه، والقاعدة الوحيدة التي تعلمتها هي أن الميت يجب أن يبقى محاطاً بسياج في الأسفل بعيداً عن دناءة الأحياء وحقارة الحياة. إلا أن المقبرة ما زالت تتعرض للتدمير، والأهالي تلقي عليها أسوأ المخلفات التي تعافها النفوس، ولم يعد هناك حاجز يفصل بين الأحياء

والأموات، حتى صرنا نتوقع أن يسمع كل طرف ما يهمس به الطرف الآخر.. وطالما حذرتهم من هذا التماس الخطير، وأعلنت أن أحلامي ورؤاي الليلية، تؤكد غضب سكان الطبقات السفلى، وسوف يؤدي تجاهلهم إلى أحزان ومحن لا تنتهي، ورغم إدراك الأهالي أن لي باعاً طويلاً في تفسير الرؤيا وحكمة أسبغتها علي العزلة والتأمل، إلا أن الجميع رأوا أن هذه الأحلام ليست غريبة على رجل يعمل في مقبرة، وكانت علامات البؤس والشقاء التي تحدثت عنها كثيرة، يا جماعة .. يا ناس .. يا أرباب العقول الغافلة، انظروا إلى بيئتنا الزراعية .. كيف تجدونها؟ إنما هي عبارة عن زروعٍ وأراضٍ باتت عديمة الجدوى، نعمل على فلاحتها طوال العام، ولا نجني منها سوى

القليل، وحين يهطل المطر لا يكاد الماء يستقر على السطح، وسرعان ما نرى التربة جافة والأشجار عطشى كما كانت من قبل، شيء آخر لم تتفكروا فيه جيداً، بل اعتقدتم أنه جاء في ضربة قدر، ذلك هو مرض الحصبة، هل أحصيتم كم أفنى من الأطفال في الأعوام الماضية؟ لقد حصد العشرات وأودى بهم إلى هذه المقبرة التي لا تحابي أحداً، وهناك التاجر الحاج محمد، إن دكانه عديم البركة، ولم تنفعه شيئاً تلك التلاوات والابتهالات وزيارة البيت الحرام في كل موسم حج، والحصن الحصين، وغيرها من الصدقات التي أتحف بها الأرامل والأيتام، لقد فعل ذلك من أجل أن تتزكى تجارته وتتطهر، ومع ذلك لم يتغير حاله إلى الأحسن. كيف يبارك الله له في تجارته وكفّتا

ميزان بضائعه تتربعان فوق رأس ميت من أولياء الله الصالحين، وإلى متى نظل نتجاهل أمر نفوق عدد كبير من البهائم حتى لا يكاد يمضي أسبوع دون أن نرى النسور وهي تحلق في سماء القرية، ولا أدري ما يجعلني ألقي هذه الكلمات، رغم معرفتي بالنتيجة، لا فائدة ترجى من نصيحة الأهالي، لأنهم يقولون دائماً، الوصي المسكين أصيب بالهوس، وهو داء يصيب الأشخاص كثيري التبرم والحزن، في الحقيقة أحاول فقط أن أنقذ نفسي من المجهول، لأننا أمام مجموعة من العتاة الفانين، وزن خصيتي أحدهم يفوق وزن رأس رجل من هذا الجيل، ولكنكم–وهذه هي لب المشكلة–تعتقدون أنهم صاروا في حكم المنتهي، ومن ثم تعطون أنفسكم الحق في أن تدلقوا فوق

رفاتهم كل ما تكرهون، ليسوا كما تظنون عاجزين عن إلحاق الأذى بكم، فما زالت أطيافهم من حين إلى آخر تمشط أزقة القرية وباحاتها، إنهم ينظرون إلينا خفية من أماكن متفرقة ولكنهم لا يستطيعون النطق... هاأنذا قد أنذرتكم من التمادي في تجاهل الأحياء أيها الأموات.. وتخنقني العبرة فأبكي، ويحتار الحاضرون كيف يتصرفون حيال هذا الأمر..

–دعوه، وشأنه إنه مثل البوم الذي لا يستطيب العيش إلا في الخرب والأطلال. يقول ذلك الأمين صويلح جوهد كالعادة قبل أن ينصرف، وأذهب دون أن أقول شيئاً.

الفصل الثاني

انهمر مطر غزير بعد أعوام من القحط والانتظار، واخترقت المياه القريةَ من كل الاتجاهات، فأخذت أستنجد وأتهم بعض الأطراف بالتسبب في تدمير مصدّات الماء التي صنعها الأسلاف، ولكن الماء لم يصب المساكن بضرر، بل سلك الجانب الغربي من المقبرة، معرياً اللحود من التراب، جارفاً معه كثيراً من الطمي والحصى الدقيق إلى حقل البن الذي يملكه أمين القرية صويلح جوهد، وبعد صفاء الجو أقبل الأخير على عجل مندهشاً متنمراً، فكان آخر الواصلين إلى المكان بحكم بعد منزله وعدم توقعه

حدوث مثل هذا.. بدا الحقل وسط الركام كالطلل المهجور أو المقبرة، ولولا ظهور رؤوس بعض الشجيرات المدفونة كان يمكنه الاعتقاد أنه ضاع إلى الأبد، وفي هذه الحال لم يستطع أن يصمد غير بضع ثوان، ثم انفجر يلعن ذلك اليوم ويصف ما جرى بالمؤامرة، ولم يستطع الأهالي الذين سمعوه أن يعرفوا من هو المتآمر المقصود في ذلك، غير أنهم صاروا يواسونه ويصورون له الأضرار على أنها– مقارنة بحجم المياه –كانت يسيرة، وبما أن الحقل ما زال على قيد الوجود، فإن هذا من حسن الحظ، وليس على الأهالي في الأيام القادمة إلا المساهمة برفع ما تيسر من الركام، ولم يكن هذا يعني الود المطلق أو الامتنان على معروف سابق، ولكن العادة تقضي وجود قدر معقول من

البوادر الطيبة بين الجيران، إلى جوار نفس المقدار من الخبث وسوء النية، فهو الأمين الذي يشرف على جمع الزكاة، وعبره يتلقون الأوامر والمعلومات الآتية من المديرية، وهو ضليع بكتابة الأحكام والعقود بما في ذلك أوراق الملكية وعقدا الزواج والطلاق، باختصار هو ممثل القرية لدى المديرية والعكس، ويشاع بين الأهالي أنه يصافح مدير المديرية بالأحضان ويتبادل معه الحديث عن بعض الشؤون الخاصة، لذلك يخافون منه، وحين تسوء نواياهم يتمنون له صنوفاً كثيرة من الكوارث لسببٍ أو من دون سبب، ولكن الأمر مختلف هذا اليوم، فالرجل منكوب، ويحتاج إلى قليل من التعاطف، وإلى جانب محنته ظهرت عظام الموتى مشتتة هنا وهناك،وكذا عدد من الجماجم المفلطحة

كالبطيخات وسط الحقل المندثر، وتبدو غائرة قليلاً تغطيها طبقة من الطين، وكأنها نبتت من باطن التربة. المشاهدون للحادثة، انتقلوا من طور الأسى إلى طور مناقشة الحلول، أمين القرية الذي بدأ يستعيد توازنه بعد وعود تقديم العون، أخذ يصور ببصره حجم الأضرار ويحصي بذهنه–بشكل تخميني–الكلفة من الوقت والمال، التي ستعيد الحقل إلى ما كان عليه في السابق، وانتبه إلى دمدمة صوتي، ونظر بحقد إلى كيس النايلون الفارغ المخصص للعظام الهاربة، وعندما هممت بالتقاط جمجمة ميت أتاني صوته الغليظ:

–ماذا تفعل أيها المجنون، ألا ترى ما حل بالحقل من مصيبة؟

–المساكين لا أحد يدرك أي ذنب اقترفوه حتى تتحطم منازلهم.

–لماذا تشغل روحك بالمقبرة الآن؟ انظر حولك بإمعان، يوجد الكثير من القاذورات والحطب والرماد. الأحياء أحق بالمواساة من الموتى..

لم أتكبد عناء الإجابة، إذ ليس بيدي حيلة في كل ما يجري..

بعد يوم، سمعت صريراً في الخارج، وهناك فوجئت بجرَّافة ضخمة تتقدم وسط القبور، والصرير ناجم عن احتكاك جنازيرها الحديدية بالشواهد الحجرية، حاولت التصدي لها،ثم أجفلت من أمامها يائساً في النهاية، وجعلت أصرخ وأستنجد، ورأيت أمين القرية يتعقب الآلة بحركات متوثبة ولفيف من الأطفال، فأخذت

أعدو خلفها وأقذفها بالأحجار، وأوشك أتباع "أمين القرية" أن يبرحوني ضرباً، فقد كانوا منتشرين في المكان يراقبون عن كثب، وما أنقذني منهم سوى الأمين نفسه، إذ دفعني بعيداً متأففاً كمن يود أن يتخلص من شيء مؤذٍ، فوقفت تحت ظل الدار العتيق أندب حظي، كانت عمتي قبول تنظر كعادتها من نافذة حجرتها، تبادلنا النظر، فاضطررت أن أقول لها بتبرم:

-ألا ترين ما يحدث يا عمة قبول؟

-لعل الأمين يريد أن يصلح ما أفسده المطر؟

-إنه يفسد القبور ويحطم شواهدها. هل يزعج ذلك الموتى؟

-لو كان أبي مبخوت حياً لأمر بإحراق هذا الشيء، كما فعل ذات يوم حينما أمر بذبح بقرتي الحالبة لأنها اقتحمت المقبرة..

-نعم.. ليته كان حياً.. قلت ذلك بصدق..

وسرعان ما رأيت أكواماً عظيمة من الأتربة تتراكم أمام الحقل، وعلى إثر ذلك اختفت شجرة الولي صالح، وقبة قبر السيد موسى، وما زال صويلح جوهد يشير إلى قائد الجرافة أن يستمر في العمل، وكان صوته ينبع من جوف الضجيج:

-ارفع الحاجز أكثر، أريد المزيد من الأتربة..

بعد قليل من الوقت أتت إشارة النهاية، وتوقفت الآلة بجانب الحاجز الترابي، وخرج قائدها ينظر إلى ما حوله بفخر، لم أرني بمثل

ذلك الضعف والانكسار الذي كنت عليه في ذلك اليوم، ورغم ذلك تحاملت على نفسي، ومشيت حتى وقفت أمام أمين القرية وموكبه الصغير، وقلت له بلغة العرافين وأصحاب الكرامات:

–فلتنتظروا عواقب أفعالكم المشينة، لأنكم تماديتم في الاستهانة بالموتى..

–ماذا ستفعل الجرافة إلى جانب هذا الكم الهائل من القذارة؟ إياك أن تدعي أنك تستطيع أن تنقذ شرف المقبرة، لقد فات الأوان على ذلك. قالها أمين القرية بغضب.

وأصبحت حائراً لا أدري كيف أعمل، كلما أدركه هو أن ما يحدث في المقبرة غير منطقي، بينما يفرض عليّ عملي أن أقف حجر عثرة أمام من تسول له نفسه إيذاء الموتى، وقد

اتخذت من وصية الواقف وتهديداته ذريعة كافية لأقذف الرعب في نفوس الأهالي، وهاأنذا اكتشف في وقت متأخر بأن لا أحد يبالي بما أقول أوأفعل، لا أحد يخشى غيري من تهديد الواقف، وشعرت أني أتحول تدريجياً إلى واعظ مزعج، وها قد بدت أقوالي تثير سخريتهم، وتبعث فيهم الرغبة في إيذائي لإجباري على الصمت، حتى بت أشك في نفسي، وأشك في كلما أقول أو أفعل، يبدو أنني شخص واهم مخدوع..

في المساء ارتميت على فراشي متعباً منهك القوى، وفكرت في أن كلام صويلح، رغم غلظته يحمل شيئاً من الصحة، ففي أوقات نادرة يفاجئنا هذا الرجل ببعض العبارات المدهشة:

"الجميع يهين المقبرة منذ الأجداد، وليس هناك مذنب في نظركم سوى صويلح".. ولكنه يتذرع بأخطاء الآخرين ليرتكب أخطاءه الخاصة، لقد صمدت شجرة العرم وقبة السيد موسى وكثير من شواهد القبور في وجه المياه والإهمال إلى الآن، حتى أتت هذه الآلة المجنونة، فاجتثته افي بضع ساعات، وأتساءل بغضب، هل أنا حقاً أحاول إيهام نفسي والآخرين بأني أقوم بإنقاذ القرية من قدرها المحتوم؟ هل انتهى بي الحال مثل واعظ يكرر عبارات الشؤم والتحذير؟ ولكني أخشى على نفسي من فخ الإهمال، وهو أمر لا أستطيع أن أتحمل تبعاته، وقد حذرني والدي من خطر التقاعس عن أداء واجبي في المقبرة، هذا الخاطر

طرد النوم من عيني المجهدتين، ورغم ذلك أحسب التهاب البؤبؤين الغارقين في ظلمة غرفتي الباردة، في الخارج توقف كلب عن النباح، وتلاشت أصوات الطيور والحشرات، وفي الوقت ذاته، اختفى ضوء القمر خلف الغيوم، وخيم السكون والظلام، وهذا جعل الليل كئيباً مهيباً، لا تكاد تسمع فيه حساً لمخلوق حي، ثم تناهت إلى سمعي جلبة شديدة مفاجئة، أقدام كثيرة تركض لسبب ما في الخارج، قمت متحدياً رغبة البقاء تحت فراشي الدافئ، وفتحت مزلاج النافذة بهدوء، ثم سلطت ضوء المصباح هنا وهناك، **لاشيء**... تنفست الصعداء، وقبل أن أوصد المزلاج ارتفعت خصلات شعري في الهواء، والتهمت

جسدي القشعريرة، فعدت إلى الفراش بسرعة، واسترخيت مطلقاً زفرة شديدة، وفكرت في أن الفئران توهمنا أحياناً بأنها تجري كالثيران، ولكن سرعان ما عادت الضوضاء من جديد، وعرفت أن الخطى لأشخاص كثيرين، بحيث ارتجَّت الغرفة وخشخش الزجاج، فتشبثت باللحاف مثل طفل صغير، ثم تكورت كجنين في بطن الأم، وهكذا اكتشفت مذاق الخوف، لقد كان ما حدث شيئاً خارقاً للعادة، وليس من صنع الأحياء، وسألت نفسي عن ماهية الجنون،كيف يبدأ؟ وبم يشعر الإنسان حينما ينطفئ عقله ويتوقف عن العمل؟ هل يعقل أن يكون ذلك وهماً من الأوهام؟ ما كاد الصباح ينبلج حتى أفقت، واتجهت لأتفقد آثار الليلة الماضية محصياً الأضرار، ولكني لم أجد أي

آثار قرب المنزل، عدا زجاج النافذة المهشم على العتبة الإسمنتية، وما إن شعَّ نور الصباح حتى فُتح باب الدار العتيق، وظهر جسد عمتي قبول الضئيل، أطلت وهيكلها يرتعش بملامح شاحبة لم أر مثلها أبداً، لم تنبس بحرف واحد على غير عادتها، كانت شفتاها جافتين ولسانها ثقيل لا يكاد يتحرك، أمسكت بيدها، وسرنا إلى حجرتي، ثم تركتها تستلقي على فراشي، ومضيت أعد لها شيئاً تفتق به ريقها، وكنت أعرف طهي قهوة "صعتر"، وهو شراب مهدئ للأعصاب يعطى للخائفين، وما إن فرغت من شرب الكأس الثاني حتى انفكت عقدة لسانها فقالت بصوت ضعيف:

– كنت أظن أني وحيدة في الدار العتيق حتى ليلة أمس، لاشك أنه مسكون بشيء ما، كانت الأبواب توصد بقوة، وسمعت ركضاً على السلالم وكائنات تلهث بشدة.

قلت بقصد التخفيف عنها:

– الفئران والرياح يمكنها أن تفعل ذلك..

– أرجوك يا ابن أخي، لا تسخر مني، لم أفقد عقلي بعد، مازلت أستطيع التمييز بين الأصوات..

خانتني ملامحي، فانكسرت نظراتي نحو الأرض، ولم أستطع أن أكبح السر الخفي الذي أطل برأسه من وجهي وسال من عيني الشاردتين، فأردفت بشك:

–أراك مِحْمرَّاً،ماذا تخفي يا ناصر؟

– الحقيقة،لقد سمعت شيئاً كالركض خارج حجرتي، ولكنك تعرفين بأني متعايش مع الخوف، إلا أن شعيرات رأسي وقفت واقشعر جسدي.. لم يسبق أن ارتعبت هكذا من قبل..

– ماذا تفسر ما حدث؟

– قد أبدو مخبولاً حين أقول إن الموتى يخرجون من قبورهم، ولكني أشعر أن أرواحهم منزعجة من القاذورات التي ندلقها عليهم..

ثم سألتها عما يعنيه أن نكون دون عائلات، وعن العديد من الأهالي الوحيدين، كثيري البلاء والمحن، وعن سلالتنا التي لا تنجب سوى ذكرٍ واحد منذ قرون، وكانت لها وجهة نظر مألوفة:

–كل شيء يحدث هو قدر من الله، وهذا هو قدرنا الذي لا مفر منه..

–ولكن القاطنين بعيداً عن المقبرة يتكاثرون كالأرانب، وهذا شيء يدعو للعجب، أمين القرية صويلح،لم يرزق أطفالاً حتى هجر بيته القديم إلى منزل حديث البناء، وما يضاعف المأساة أني لا أرغب في الزواج، وهذا يجعلني سبباً في انقطاع شجرة الأوصياء، ماذا أفعل؟ لا شيء يثيرني من أعماقي، شيء مجهول يمنعني عن التفكير في ضم شخص آخر إلى حجرتي، شيء يتعلق بنظرتي السوداء إلى ما يدور في القرية..

قالت عمتي قبول بشيء من التأثر:

–جرِّب حظك مع امرأة، ربما تصبح سعيداً بعض الشيء، أن يكون المرء وحيداً بعد الأربعين فذلك مما لا يحتمل..

–وهل على مثلي أن يقترن وينجب أطفالاً في مقبرة؟

وحين هممت بالمغادرة تشبثت بثيابي بشدة وهي تقول:

– لن أبيت وحيدة في الدار، سأجهز لك الحجرة المجاورة لحجرتي، أنت تعلم أنني امرأة وحيدة كبيرة السن، ويمكن أن أموت رعباً..

وقطعت لها وعداً، ومضيت وفي ذهني أفكار كثيرة حول وصية الواقف وعلاقتها بالجلبة التي حدثت في المقبرة.. كان الدار العتيق عالماً بحد ذاته، فهو أول المساكن التي اقتحمت سكينة الموتى، تاريخ بنائه مجهول، مؤلف من أربعة طوابق، أرضيته ذات غرف معتمة تضم مدافن الحبوب وزرائب الحيوانات ومخازن الأعلاف،

وتطلب الحال بعض الوقت، لاستكشاف ردهاته وغرفه المعتمة، وبعد ذلك نقلت متاعي إلى حجرتي الجديدة، كان الهمس يسري في القرية، وشرع الأهالي يسألون بعضهم عن تلك الجلبة التي حدثت، وفي المساء خلال ليلة مقمرة، ارتفع صوت أحد الفلاحين حتى بلغ مسامع الجميع، إنه أبو أكرم، رجل على قدر كبير من الاتزان والعقلانية، ولكنه يروي قصة غريبة حدثت عند اجتيازه المقبرة في طريقه إلى منزله، كانت نسمات الليل لطيفة، وضوء القمر ساطعاً بحيث بدت الرؤية واضحة تماماً، وهذا دعاه للاستغناء عن ضوء مصباحه اليدوي، وقد لفت انتباهه ذلك الحاجز الترابي المستحدث عند حقل البن، وكان من الطبيعي أن يثير انتباهه كبر حجمه، ولم يصدق

عينيه وهو يراني أجمع رفات الموتى، ممسكاً كيس النايلون، اقترب من الحاجز أكثر حتى كاد أن يصطدم بجسدي المزعوم، ولكنه أمسك الفراغ، فانتابته رعشة الخوف، ولاذ بالفرار، في هذه الليلة عادت الجلبة وسمعنا الركض في سلالم الدار، فصعدت وعمتي قبول نحو العلية، وعلى السطح وقفنا نختلس النظر إلى المقبرة، لاشيء يجري، كان القمر ينير المكان، ووقع الخطى لم يتوقف، وليس هناك أي كائنات تظهر، فقط أصوات تأتي من الخمسين بيتاً المحيطة بالدار، في الصباح انتشرت الأنباء، وكشف الأهالي عما انتابهم، فقد أجفلت المواشي.. وصارت تخور، ثم انطلقت تهيج وتتحرك وتنطح أبواب زرائبها، وحلموا جميعاً بالحلم الرهيب الذي رأيته، وهو

أن العظام التي كنت أجمعها قد استحالت إلى هياكل آدمية مكتملة التركيب، أخذت تزحف نحو القرية بأعداد كبيرة إلى أن احتلتها في طرفة عين، وسرعان ما أطبقت على كل شيء، وحاصرت المداخل والأزقة، حتى طردت الأهالي من منازلهم، وقذفت بي وعمتي خارج الدار. وروت عمتي قبول الحلم ذاته، وسرى الرعب في أوصالنا، وشعرنا بخطورة الموقف، أمين القرية صويلح جوهد، حاول أن يبدو متماسكاً واثقاً بنفسه، وبات يقلل من شأن الرؤيا، "الأموات لا يمكن أن تفعل شيئاً".. واستمر في التهوين من أجل طمأنة الناس:

"لا ترعبكم هذه الهياكل القليلة، إنها ضعيفة بحيث يمكن سحقها بمجرد أن تقرأ عليها بعض

الآيات القرآنية والأدعية النبوية، لا يستطيع أن يزعزع سكينتنا أي كائن كان، وأنتم تعرفون أن الموتى هم في العادة رقود لا يتزحزحون عن مواضعهم. هل غاظهم أن أمين القرية أقام مصداً فوق رؤوسهم من أجل أن يحمي حقله من المياه، فإذا كان هذا صحيحاً، فقد أعمى الحقد عيونهم، كما أعماها الموت، ألا يكفينا ما نعانيه في سبيل تدبير شؤونكم أنتما لأحياء، وهل يتوقعون أن أتغلغل في التربة لأزور هياكلهم المتحللة، أو ألملم عظامهم كما يفعل "ناصر" وصي المقبرة، نعم، إن الأمر يدعو للغرابة، بل إن دوران حلم واحد على عدد كبير من الناس مدعاة للظنون! ولكن ماذا يريدون؟ أن نهجر مساكننا وحقولنا ونرحل إلى جهة مجهولة! هل يبتغون أن نهبط إلى قبورهم،

وهم يرتقون إلى منازلنا ويزاولون أعمالنا؟ سحقاً لهؤلاء الأشباح، هيا .. اذهبوا إلى الحقول، ومارسوا حياتكم بشكل طبيعي، أضحكوا وضاجعوا ثم ناموا، ولن يحدث شيء لاسيما إذا ارتويتم من أفواه نسائكم".

كان هذا الكلام مسلياً، حتى أنهم تبادلوا بعض الدعابات، ثم انصرفوا تنتابهم أفكار متباينة، أي قلب يملك هذا الرجل الحديدي! إنه يضحك بعد تلك الليلة المرعبة، لعل الهياكل التي زارته في المنام كانت ترتدي جلودها ولحمها، أو أنه لم ير شيئاً يستحق المبالاة.. لذا بدوا هادئين مستكينين، وكأن أمين القرية منحهم حصانة أكيدة من الأحلام المزعجة، ولكن الجلبة الشديدة أتت في المساء، و رأينا الموتى يهاجمون القرية

وبأيديهم مشاعل مضيئة، وفيهم والدي وجدي مبخوت وأصدقاؤه الثلاثة وآخرون ممن نعرفهم وممن لا نعرفهم.. أخذونا وقيدونا وقذفوا بأجسادنا في نار عظيمة أضرمت وسط المقبرة، إنه الحلم الذي رآه الأهالي مع فوارق بسيطة، وخرجت عمتي قبول من عزلتها واختلطت بالأهالي، وقد قررت أن ترمي قنبلة كلامية عنيفة في وجه أمين القرية:

"أنت من أثار الموتى على الأهالي حين أدخلت الجرافة إلى المقبرة، وجعلتها تحصد قبورهم وهياكلهم"..

في باحة القرية كان الأهالي يصرخون في بعضهم، وسمعنا القنبلة الموعودة ترمى في وجه

أمين القرية من أفواه آخرين، وكما هو متوقع جاء رد الأمين صويلح على نفس الموال:

–بل أنتم الذين تنامون فوق هياكل الموتى، وتلقون عليهم المخلفات، أين تذهب المياه الخارجة من مراحيضكم؟ هيا .. أجيبوا .. كلنا مجرمون، كلنا معتدون على حد سواء.. وليغفر لنا الله.

وأتت أسئلة أكثر أهمية من أفواه البعض:

–أهو حلم الموتى والمشاعل والنار يا عمة قبول؟

–نعم .. إنه هو .. أجابت .

–ماذا يعني ذلك؟

– ...

وأتت كلمات أخرى هامة، "**حلم واحد للجميع، وصي المقبرة**"..

–ماذا تريدون مني؟ سألتهم ووقفت شامخاً متحفزاً، كانوا محتارين ومنهارين، ولا يعرفون كيف يواجهون هذه الكوابيس المريعة، ولكنهم شرعوا ينتبهون إلى نصائحي ومحاذيري..

–بل ماذا يريد منَّا الموتى؟ هذا هو السؤال الصحيح.. قال حسن الطويل.

–نعم .. لقد كنت أسمع تحذير والدي الذي علمني هذه المهنة، وهو لابد من إخلاء المنازل المبنية فوق الأرض الموقوفة، وينبغي أن تحاط بفناء يحميها ويحدد معالمها، بمعنى آخر، يجب

الفصل بين الأحياء والأموات، وهذا كل شيء عندي..

وقابلني معظم الأهالي بكثير من الاستخفاف:

-إنك رجل واهم لا تدرك كلفة هجر الأهالي لمنازلهم، من هذا الذي يستطيع أن يمنحنا أرضاً لنبني فوقها، إننا فقراء بالكاد نحصل من الغلة ما نقيم أود العائلة إلى العام المقبل، الوحيدان اللذان استطاعا الخروج من المقبرة هما صويلح جوهد وحسن الطويل، ورغم ذلك، فهما مثلنا يشكوان الأحلام المرعبة.. وهذا يعني أن البناء فوق المقبرة، ليس له علاقة، بل شيء آخر يجب أن نبحث عنه. قال أبو أكرم .

–أمين القرية اقتحم المقبرة وحطم قبورها ونثر هياكل الموتى هنا وهناك، لقد فعل ذلك بواسطة تلك الآلة ذات الجنازير، ولم يحُلْ أحد دون هذا الاعتداء السافر...

–لا تستطيع أنت ولا أحد من أهلك أن يمنعني من حماية أملاكي، ولو كنتم حقاً تريدون كف الأذية عن الموتى، فلماذا تقطنون في الدار العتيق، وكأنكم لا تدركون أن القبور تحت أرضيته، فكف عنّا لسانك القذر يا ناصر.

صاحت عمتي قبول بغيظ شديد:

–إنه يقول الحقيقة يا كبير القرية..

واشرأبت الرقاب والأعين نحو أمين القرية،عشرات العيون الساخطة ترمقه بسخط وكأن الحجة قد أقيمت عليه، وهذا ناجم عن

تأثير عمتي قبول وبسالتها، وعندما أحس الرجل بذلك، بدأ يتلطف في القول:

–اسمعوا يا جماعة الخير، لقد حدث ما حدث، الكل مخطئ، ونحن نحصد عواقب ذنوب أجدادنا، والآن يجب ألا نتبادل الاتهامات، أنت من فعل هذا،أنت من صنع ذاك. فكروا معي، كيف نخرج من هذه الورطة، أيها العقلاء، أهملوا الضغائن، وهيا بنا نفكر..

تجمدت أعينهم في الفراغ وكأنهم يفكرون، وفجأة استأنف الحديث بحزم: لنجرب المقرئين،نعم، ليس هناك ما هو أكثر حكمة من ذلك... وبعد جدل مرير، اتفقنا على زيارة مقرئ اسمه "خيران"، وكلفت بأن أقوم بزيارة هذا الرجل، ولم أستطع الاعتراض على مشيئة

الأهالي، على الرغم من تأففي من فكرة مغادرة القرية، ولكني وصي المقبرة وأستطيع أن أقرأ وأكتب، ويعتقد الأهالي أني متحدث بارع.. وهكذا سرت نحو قرية نائية يسكنها عدد من الفقهاء والحُفَّاظ، كانت هناك طرق مختصرة تجنبني رؤية الناس الفضوليين الذين يسألونك عن وجهتك، ولم أكن أحبذ أن يدرك أهالي القرى المجاورة ما ينتابنا، ومتى أدركوا الغرض الذي سأذهب من أجله،سوف يضحكون ويتندرون كثيراً، وأنتم تعرفون أهالي القرى الذين يفتقرون إلى كل مصادر التسلية، وليس هناك ما يشغل فراغهم سوى التنقيب عن عيوب بعضهم البعض، وكلما مررت بقرية أتعمد أن أمعن النظر في مقابرها، وقد كانت معظمها محرزة بشكل جيد،

وفي إحدى القرى، رأيت شاباً يق فقرب قبر حديث،ويبدو شكله نظيفاً وشعره مرتباً،قلت بصوت مسموع:

–السلام عليكم، دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن على إثركم لاحقون..

التفت نحوي وسألني:

–هل ألقيت عليّ التحية؟

–أنا أخاطب الأموات وأقرأ على أرواحهم السلام..

–لا فرق بين الأحياء والأموات هنا، انظر إلى شكل مقابرنا، هل نتوقع أن يدخل موتانا جنة الفردوس؟

–وهل تشك في وعود اللّه؟

–هذا هو قبر والدي، مات قبل عامين دون أن أراه، لقد كنت أدرس في دولة غربية، هناك المقابر مكللة بالورود والأزهار ويكسوها العشب الأخضر..

–هل هذا صحيح؟

–نعم، وهذا يجعلني أعتقد أن المقابر هي الوجه الآخر الخفي لحياة البشر الأخرى، لذا لا أعتقد أن أبي يشعر بالارتياح في هذا المكان.

أمعنت النظر في المقبرة، لقد كانت محاطة بسياج منيع، ولكن بعض أشجار التين المشوك قد استوطنت تربتها، ومع ذلك بدت مقارنة بمقبرتنا، وكأنها جوهرة، إلى جانب قطعة فحم، وهذا دفعني إلى الارتباك بحيث غادرت المكان دون أن أودع الشاب، أصبحت حزيناً حين فكرت أن أرواح موتانا تتعذب في مراقدها القذرة، وهذا

يدفعهم إلى مهاجمتنا، ترى هل سنصبح مثلهم معذبين؟ اثنتا عشرة ساعة من المشي الدؤوب ، كان الغروب قدحل، وبدأت تختفي ألوان الشفق الذهبية، وتحل مكانها غشاوة سوداء، وسمعت من السكان بأن خيران لا يستقبل الزوار في الليل، فاضطررت إلى المبيت في بيت عابر السبيل الملحق بالمسجد، ونمت هناك،ورأيت الموتى تنتظرني على مشارف قريتنا وتناديني أن أرجع، وعند الفجر نهضت وشعرت بشخص يتحرك قربي، لاشك أنه مثلي عابر سبيل،لكني لم أشعر بوجوده في ذلك البيت المظلم، وسمعته يطحن ويلوك شيئاً في فمه، وأحسست بالجوع الشديد،و كان عليّ أن أقول شيئاً لرفيقي الغريب الذي نمنا معاً تحت سقف واحد. فقلت:

–هل حل الفجر يا صاحبي؟

–نعم، خذ لك لقمة إذا كنت تشعر بالجوع، الله يكتب أجر المحسنين..

ولم أرفض هذه الفرصة التي قدمت إليّ من رفيقي في الحجرة،فأجبت:

–أثابك الله خيراً..

ومددت راحتي نحوه، وتناولت قطعة كبيرة من الفطير وأكلتها مثل لمح البصر، ثم شربت الماء من قلة على شرفة البيت، وذهبت إلى المسجد، وهناك أديت الصلاة ولفيفٍ من كبار السن، ودلوني على خيران، وهو رجل مهيب متوسط القامة بدت عليه أمارات الشيخوخة، وقد أصم أذنيه في البداية حين سمع مطلع الحديث، وهكذا شعرت بقلق كبير من فكرة العودة خائباً،لكنه في

النهاية، وافق أن يأتي إلى القرية وزمرة من رفاقه.. بل وأقسم ألا يعود حتى يطرد الكوابيس من أحلام الأهالي.. وأسرعنا صوب القرية، وما إن رآنا الأهالي قادمين حتى صفقوا جذلاً ثم كفوا أيديهم وانكمشوا مظهرين التهيب،وهم ينظرون إلى المقرئين المزدانين بالعمائم والقمصان الرمادية، واستقبلنا الأمين صويلح جوهد بوجه باش مستبشر، ونظر الجميع إلي بامتنان واضح، أما الفقيه عبدالقادر فقد ظهر بزيه الشبيه بأزيائهم، وسار معهم وكأنه واحد منهم، وصار يشرح لهم بأن الأذكار التي كان يقرأها على أرواح الموتى لم تكن تكفي، وها قد آن الأوان لكي ترتفع الآيات والأذكار من كل الجهات، وهي كفيلة بإعادة الأرواح الهائمة إلى تربتها، وهنا طلب خيران

والمقرئون أن يكون موضع إقامتهم مطلاً على المقبرة، واستجمعت عمتي قبول كامل شجاعتها، وعرضت عليهم الإقامة في علية الدار العتيق، وهي تعرف أن هذا سيكلفها مصاريف استضافتهم لعدة أيام، ولكن وجودهم في ظل ما يجري قد ينشر السكينة في أجواء الدار، وخلال وقت قصير، تم تجهيز العلية وتهويتها للقادمين، ونفضت بعض النسوة عنها غبار ثلاثين عاماً من الإهمال، فمنذ توفي جدي مبخوت أوصدت هذه العلية، وظل الدار مفعماً بالسكينة حتى وقت قريب، وها هي عمتي اليوم تبث المقرئين ما تسمع من أصوات وما تراه في المنام، ولكن كانت وجوههم تكشف عن سخرية مبطنة من أمر الجلبة والأحلام المخيفة، كانوا غير مبالين بمخاوف الأهالي، وإن تظاهروا

بالاهتمام فذلك من قبيل المجاملة، وكأنما لسان حالهم يقول: ها نحن في أوساطكم لا نخش شيئاً.. وسنرى ما سيحدث..

وبمجرد أن ارتدت القرية حلةمن أشعة الشمس، كان النداء قد وصل إلى آذان الأهالي، فخرجوا يتثاءبون بعد ليلة مضنية من الكوابيس المعتادة، ويتساءلون عما يجعل المقرئين يستدعونهم في مثل تلك الساعة المبكرة، ورغم ذلك أخذوا يهرعون باتجاه باحة الدار العتيق، آتين من أماكن متفرقة كأنهم طلاب مدرسة ينتظرون أن يقرع جرس الدخول إلى الفصول، كانت الباحة جوار دارنا مربعة وعميقة، وتحت ظلال شجرة عسق ضخمة تتكوم كتلة بشرية مضطربة،المقرئون في الوسط مقرفصين فوق

(حصائر) خزفية مبطنة بفرو الماعز، ووجوههم مفعمة بالغموض والتيه،أمين القرية بالقرب منهم يفترش آخر طرف الحصيرة، مستمداً هذا الامتياز من سلطته وتأثيره القوي على معظم الأهالي، وكذلك بفعل قدرته العجيبة على إدارة الاجتماعات والجلسات، لكنه بدا عديم الصبر وهو يفرك أصابعه ببعضها،ويدير رأسه الضخم يميناً ويساراً، ولما أحس بأن الغالبية من الأهالي قد حضروا استهل الحديث، فأوضح بأن الأمر يجري على هذا المنوال كل مساء، ومنذ قرابة شهر والليالي الطوال تمر تباعاً، وما من ليلة إلا وتكون أشد رعباً من سابقتها، ومع ذلك ظن الأهالي أنها ستنتهي في وقت قريب مثل كل الكوابيس العابرة التي يراها النائمون، كما أن

المسألة برمتها ستكون غير قابلة للتداول أو التصديق، وإلى هذه اللحظة لا نود أن نؤمن بما يجري... ولم يطق خيران سماع المزيد، فانفجر في وجوه الأهالي قاطعاً على الأمين سبيل إكمال التبريرات:

–هذا شيء غير معقول، كيف تسكتون على وضع مزرٍ كهذا، لقد كنت أحسبكم ستندهشون حين تسمعون أن المقرئين حلموا بالأموات، ولكننا نفاجأ بأنها تأتيكم منذ أكثر من شهر، وأنتم طيلة هذه المدة قابعون في منازلكم لا تحركون ساكناً كأنكم أنتم الموتى وليسوا هُم، ومهما كلفنا الثمن لابد أن تتوقف هذه الأحلام..

واسترسل في التبرير مبدياً أسباب اهتمامه وانفعاله، وجميع الأسباب بمجملها تصب حول

الأخطار المحدقة بهم،ستنحل أجسادهم وتنهار عزائمهم ويعيشون في خوف دائم، وقد يموتون أثناء النوم.. ولم يشأ المقرئون أن يعترفوا بأنهم لا يستطيعون علاج مثل هذه الحال. بل طلب خيران المزيد من التفسيرات.. وشعر الأهالي بحرية تامة في الترويح عن نفوسهم المتعبة، فتحدثوا عن أشجانهم وآلامهم، كلٌ على حدة دون كلفة أو مداراة، واقترحوا جملة من الحلول، يبتدئ الأمين والمقرئون عباراتهم "يجب أن.." ويقتصد الأهالي في التعبير بالاستهلال ب "ماذا لو.." أما أنا فيغلب على قولي الأنا المهذبة "أنا أرى أن.."، ولكننا لم نتفق على حل، وصرنا في جدل محتدم، إلى أن علا صوتي المتحمس:

–أرى بأن يخلي الأهالي القرية، ويهجروا منازلهم و...

وهنا ضج الحاضرون ولم يسمحوا أن أتم مقترحي. وما الذي كنت سأضيف إلى ذلك، فالمقترح لاقي الرفض التام من كل أهالي القرية، كانت عمتي قبول مطلة من نافذتها على الباحة، تحتسي قهوتها، وتدخن في غليونها المحلي، وتسمع ما يدور بين المجتمعين، وعند عودتي عقب الاجتماع كانت تنتظرني في دهليز الدار لتريني شيئاً، ثم أخذتني إلى العلية، وهناك وقفنا أمام الدكاك والأغطية المبعثرة التي تفوح منها الروائح المقززة وقالت:

–انظر إلى هؤلاء المقرئين، إنهم مثلنا يخافون، وأكثر من ذلك لا يستطيعون أن يمسكوا بطونهم،

وقد فعلوها في الفراش، ولم يكادوا يصدقون أن الصبح سيطلع عليهم من جديد.. وفي الليلة الماضية حلمنا أننا نشوى على النار، وأظن أن خيران لم ينج من الحريق، ولعله لم يفصح شيئاً عن هذا الحلم حفظاً لماء الوجه، وهو الحلم الذي رآه جميع الأهالي، وأفاقوا وفي جيوبهم الأنفية أثر من رائحة لحمٍ محترق.. وفي الباحة، كان المقرئ خيران يفسر على طريقته ما سيقومون به لتهدئة أرواح الموتى الهائمة، سمعته يقول بثقة:

"إن للمجموعة الغاضبة من الموتى رؤساء، وهم ثلة ناصعة البياض والوقار من الصالحين والأولياء، وسوف ينهارون حالما تنهال عليهم آيات الله، وسوف نصرف عن القرية شرورهم بذبيحة، نقتسم

ثمنها على الجميع بالتساوي".. وصفق الأهالي جذلاً ثم كفوا أيديهم، وتوغلوا جوف المقبرة، وهناك ذبحوا بقرة، ثم أفسحوا المجال لمثليهم المقرئين، الذين وقفوا متحوصلين بتواضع حيث كانت تقع شجرة العرم والقبة، ومن ثم شرعوا بتلاوة بعض الأذكار والأدعية، ومضى خيران يناجي الوليين بصوت عالٍ:

"يا رجال الله الصالحين، إننا نصبو إلى مرضاة الله وننشد الخير للناس، وما يحدث للأهالي من قلق وأرق لا يقبله الغريب، فكيف بالقريب! وواجبكم هو النصيحة والموعظة الحسنة، وعليكم أن تجعلوا الأموات يكفوا أذاهم عن الأحياء، ونحن بدورنا نصفح عنهم وندعو الله أن يغفر لهم

أخطاءهم، والله على ما نقول شهيد، وعليه فليتوكل المتوكلون".

ثم جلبت المباخر وطاف الأهالي بها في أرجاء المقبرة، ثم تركوها تذكي قبرا الوليين الصالحين، وفتح المقرئون المصاحف وتلوا آيات الحصن الحصين والجلجلة، ثم طلبوا منَّا عدم التعرض للموتى بالأذى أو الشتائم.. انتهى الأمر عند هذا الحد، وكان علينا أن ننتظر نتيجة هذا العمل، كان الجميع —ما عداي– متفائلين، وذلك لأنهم اقتنعوا بصدق مشاعرهم وهم يتوسلون، كنت حزيناً في ذلك اليوم، وأشعر أننا نهدر أوقاتنا ونضحك على أنفسنا، بل إننا نعبث ولا نجيد حتى العبث، والمحزن في الأمر أن معظم القبور

هي لأطفال أبرياء ماتوا وهم في عمر الزهور، وأولئك هم أكثر سكان المقبرة، حيث أخذتهم الأمراض التي لم يكن لها دواء في الماضي الغابر، وكان من الأجدر بنا أن نقف أمام قبورهم ونهدي إليهم الذبيحة ونذكي أرواحهم بالروائح الزكية، ولكن المقرئين هتفوا باسمي الوليين اللذين خسرا معالم قبريهما، وهما الولي صالح والسيد موسى، بينما تجاهلوا الآلاف من الموتى، إلا أنني لم أجرؤ على الإفصاح عن ذلك، وبعد انتهاء هذه الطقوس اعترف الحُفّاظ بفداحة الأذى الذي أصاب المقبرة، ولكنهم نصحونا بعدم التحدث عن الموتى بسوء، كما طلبوا تغيير مكان إقامتهم إلى منزل لايقع فوق المقبرة.. ولم يعودوا إلى العلية بعد ذلك أبداً.. وعند مطلع المساء، اصطحبتني عمتي قبول إلى

بيت حسن الطويل، وقد قررت ألا تفارقني لحظة واحدة، لأنها لا تستطيع المجازفة بالبقاء وحيدة داخل الدار، وكانت الوحيدة من النساء التي تجرؤ على دخول مجالس الرجال، وذلك بفعل سنها المتقدم ووجاهتها وقدرتها الفذة على الحديث عن هموم القرية، ولما وصلنا بيت حسن الطويل أحدث وصولنا زوبعة من الترحيب، ونظر الأهالي إلي بتسامح، وكأنما غفروا لي اقتراحي الذي أثار غيظهم، ولعل تلك الأوقات العصيبة لم تكن لتحتمل الضغائن، فيكفي الأهالي ما ينتظرهم أثناء النوم، وكانت أحاديثهم ودودة رغم ما يشوبها من ارتباك، وكأن التفاؤل باقتراب الفرج يدفعهم نحو الأناة والسلوك الرصين.. كانت الأضواء ساطعة، ثلاثة فوانيس بمجلس الضيوف،

موزعة على الزوايا القريبة من الرجال، ولم يكن المجلس مكتظاً رغم كثافة الأحذية في الخارج، كانت هناك أواني زهور غير طبيعية على رفوف النوافذ، وكأنها استعيرت من مقتنيات المغتربين في الخليج، وعلى طاولة خشبية عريضة مدهونة بطلاء بني مصقول، قُلَّة ماء من الفخار المزخرف، وغلاية شاي يطير دخانها عالياً وكؤوس مملوءة بالسائل الأحمر تميل ناحية أصحابها الذين ما زالوا ينتظرون أن تبرد، على الجدار ملصق عليه شكل خيالي للبراق الذي حمل النبي محمد إلى السماء السابعة، وصور ببراويز خشبية ذات لون ذهبي لحسن الطويل وأبنائه الذكور، وشمعدان ذو أربعة رؤوس في الزاوية المقابلة، وتعلوه أربع شموع تضيء للزينة ليس أكثر، وبعد فينة بدأ نقاش ممل

عن الأساليب المفيدة في الري والفلاحة، حتى انتهوا بالحديث حول المقبرة والأموات، وكان واضحاً أن القلق يساور المقرئين حيال النوم، وما هذه الدعوة الليلية للاجتماع إلا ذريعة للاستئناس بوجود الأهالي إلى جانبهم، وعلى عكس النوم المبكر في علية الدار العتيق، فقد تناولوا هذه الليلة الكثير من الشاي والقات، وأكثروا من الثرثرة والضحك، وكان ذلك كفيلاً بأن يبقوا يقظين شطراً غير قليل من الليل، ولم تجد عمتي قبول مناصاً من محاكاتنا، فبدت تكافح للبقاء متيقظة، حتى اضطرت أن تمسك جفنيها بأطراف أناملها، وأصبحت تتحدث وهي شبه نائمة وكأنها تحلم،أما أنا فقد أسندت رأسي إلى الخلف واسترخيت تماماً، ولم أكن أشعر بأي خجل

بسبب هذا السلوك، وذلك لأني لم أستطع المقاومة، وما كدت أغمض عينيّ حتى هاجمتني كوابيس الموتى، فاستيقظت مفزوعاً، كانت عمتي قبول تجذبني بعنف وتدعوني إلى الخروج، نظرت حولي متسائلاً أين أكون، فرأيت الوجوه المنتفخة بفتات القات محدقة إلي، وتذكرت أني في بيت حسن الطويل، وأن الكوابيس تنتظرني في الدار العتيق.. ولكني لم أنم حتى الصباح..

الفصل الثالث

على نحو مفاجئ، راج الخبر في قريتنا بأن الموتى لا تخرج من مراقدها إلا في العتمة، وهذا أرغمنا على تغيير جدول أعمالنا اليومي، ومن ثم اندفعنا بشكل غريب نحو السهر والاجتماعات الليلية، مما جعلنا ندمن الحبوب المنبهة وأغصان القات، وذلك لاعتقادنا أنها تبقينا في حالة صحو وتزيل عنا الملل، بينما بات النوم في الليل من أسوأ وظائف الجسد التي كنا نحرص على تعطيلها، أما الذين لا يتناولون العقاقير والمنبهات لشح ما بأيديهم من مال، أو لجهلهم بمنافعها، أو خشيتهم من تأثيرها السيئ على الجسد، فقد

ابتكروا وسائل أخرى سهلة، فإذا أحسوا بالنعاس يبللون المناشف بالماء البارد ويضعونها على رؤوسهم، وأحياناً يستحمون أو يغطسون في مياه بركة المسجد القديم، أو يشغلون أنفسهم بالصلوات أو بتقطيع الأخشاب أو صنع دولاب أو مأوى للدجاج أو عريش للعجول أو أي عمل آخر، وما أكثر الأعمال في بيئتنا الريفية.. وعند الساعة السادسة صباحاً، يكون النوم متاحاً وآمناً، ويستمر السبات من دون منغصات إلى أوقات متفاوتة، فالملتزمون دينياً يستيقظون في الظهيرة لأداء الصلاة، وغالبية هؤلاء الأهالي الخمسينيين فلاحون نشيطون، يأخذون قيلولة قصيرة بعد الظهيرة، ثم يذهبون للعمل في الحقول عند حلول العصر، حيث يكون الجو مواتياً، والشمس مائلة

في السماء بزاوية□□□ ، وهناك أشخاص آخرون كسالى أو مرضى مصابون بجشع النوم لا يردعهم عن وصل النهار بالليل إلا خوف الكوابيس، ومهما يكن من هؤلاء وأولئك فإن إهمال الأرض قد حدث، فضلاً عن مشاكل أخرى نتجت عن هذا الروتين الجديد، فالأبقار مثلاً لم يرقها اختلاف مواعيد إطعامها، ونتج عن ذلك فقدانها قدراً كبيراً من نهم الأكل، فخف وزنها وشح حليبها، بينما أمست قطعان الأغنام هي الأخرى حبيسة في ملاجئها حتى وقت متأخر من الظهيرة، ومدة ثلاث أو أربع ساعات في المراعي البعيدة غير كافية لتمتلئ بطونها بالعشب، والدجاجات تظل تقأقئ داخل أقنانها والديوك تصيح بانفعال، وأيدي الأطفال تعبث بكل شيء داخل المنازل

وخارجها، والعشاق السريون أخذوا يلتقون داخل منازل ذويهم، غير عابئين بالتقاليد، وبدا الإهمال واضحاً في الحقول، حيث نبتت فيها الأعشاب والشجيرات الشوكية، وتحجرت تربتها بسبب عدم التقليب والنبش بالمعاول، وتوقف الأهالي عن رفع المخلفات والطين الفاسد عن حقل البن المندثر، وقد أحبوا أن يفعلوا ذلك ويفوا بوعودهم التي قطعوها لأمين القرية، لكنهم لم يستطيعوا أن يقوموا بمتطلبات حقولهم، فظهر عليهم العجز والوهن، وأحسوا أنهم يمشون عكس المسار الذي تمشي عبره جميع الكائنات الحية، وجلسوا ذات ليلة ليناقشوا كل هذه المستجدات، وأفصح الأهالي عن انزعاجهم الشديد من هذا الوضع الجديد، وحمي النقاش بينهم في منزل حسن الطويل حتى

كاد يحدث اشتباك بالأيدي، وفي فورة غضبهم طردوا المقرئين الذين أخفقوا في زجر الكوابيس، فضلاً عن أنهم باتوا يشكلون عبئاً إضافياً ثقيلاً، وقد أخذوا أجراً كبيراً على لاشيء، فماذا استطاعوا أن يفعلوا بأذكارهم وتلاواتهم؟ وحينما آب المجتمعون إلى عقولهم، وهدأت أنفسهم قليلاً، وجدوا أن الشجار لا يجدي نفعاً، فليسوا مستعدين لمزيد من المشاكل، وبينما هم في حالة حوار جاد حول كيفية الخروج من هذا المأزق، طلب الفقيه عبدالقادر من الجميع الصمت، ثم أخذ يرتجل موعظة دينية يوضح فيها أسباب تدهور الحياة في القرية، خاض الرجل الخمسيني العمر، الملتحي بلحية صفراء تميزه عن غيره من الكائنات، حول أسباب دخول الأموات إلى

حياتنا، وعبثهم بلياليا وأحلامنا، ثم عرج إلى الحديث عنا لمعاصي واستهتار الناسب العبادات، وجعل يمط صوته الثخين ليؤثر في قلوب السامعين:

"أيها الأخوة الأفاضل، ما أقوله لكم يحمل قدراً كبيراً من الحقيقة، إنما يجري اليوم في القرية هو عقاب من السماء، لأننا غرقنا إلى آذاننا فيا لآثام، فتخيلوا أني أصلي الفجر وأربعة رجال طاعنين في السن، وأحياناً ثلاثة أو اثنين أو أكون وحيداً في المسجد كشخص منبوذ، فكيف ترجون الخير وقد صرنا كالخفافيش، نختفي في النهار الذي جعله الله معاشاً، ونسهر الليل المهيأ للسبات، حتى أصبحت الآثام ترتكب ونحن نغط في نوم عميق، ولو كنتم ممن يقيمون صلاة الظهر،

لرأيتم أولئك الفاسقين يلتقون على بعد مترين من غرف نوم أهلهم، وقد رأيت بأم عيني شاباً يعتصر فتاة، ويمتص شفتيها على نحو فاضح، فأي كابوس أعظم من هذا! وأنا أدعو الأهالي لحضور الصلوات في المسجد، وسترون كيف تنقشع عنّا الكوابيس التي يصنعها الشيطان من أجل صرفنا عن عبادة بارئنا العظيم، وبعد ذلك نعود إلى فطرتنا الأولى، نعمل في النهار، وننام الليل"..

ووافق الأهالي على دعوة الفقيه آملين أن يكون محقاً، والحقيقة أن كلامه كان مؤثراً، في الوقت الذي مازالت فيه عواطفنا الدينية متقدة، رغم تقاعسنا عن تنفيذ الشعائر التي يعوزها قدر من الجهد والانضباط، وفجأة خاطبته عمتي قبول بهدوء:

–هل تقسم أن شفتيك لم تقعا في شفتي امرأة أخرى غير زوجتك؟

–بل أقسم أن شفتي لم تقعا على شفتي زوجتي قط. لأن ذلك مقزز..

ضحك الجلساء وقال حسن الطويل:

–ويل للرجل الكبير عندما يتزوج امرأة صغيرة، نساء هذي الأيام يحتجن أكثر من وضع الميل في المكحلة، اسألوني لأني وقعت في فخ الزواج بامرأة أصغر مني بعشرين عاماً، وبالكاد أجاري رغباتها التي لا تنتهي..

هتفت عمتي قبول بجرأة:

–أخبروني أيكم يحتضن زوجته بعد أن يضاجعها؟

–أنا في وادٍ وأنتم في وادٍ آخر كما يقول المثل، إننا في ورطة حقيقية وأنتم تستهترون.. يا سبحان الله...

وحل الصمت إثر ذلك، وخرج الفقيه عبدالقادر، وهو يتبرم من عدم احتشام الجلسة، ونظر الحاضرون إلى بعضهم بدهشة كأنما لم يتوقعوا هذا السؤال، أو شل الخجل ألسنتهم، ولكن مما لاح على وجوههم من علامات، لاحظنا أنهم لا يتذكرون أنهم يحتضنون نساءهم بعد أن يحصلوا على اللذة الأخيرة، لقد وجد الأهالي فرصة سانحة للثرثرة في مثل هذه المواضيع مادام ذلك سيبعد عنهم القلق الذي صنعته الكوابيس في نفوسهم، أنا كذلك لم يعجبني الحديث، لأنه لا يتعلق بالمقبرة والأموات، وفي طريق العودة إلى الدار

أكدت عمتي قبول أن الفتاة التي ضبطها الفقيه هي ابنته صفية، لأنه أشار إليها إشارات واضحة دون أن يدرك ذلك. ولكني لم أعط هذا الاستنتاج أي أهمية، ولم أحاول التفكير فيه.. وذلك لأني لا أذكر شكل صفية لطول ما تمكث محتجبة عن الأنظار، وهي ابنة الفقيه عبدالقادر على امرأة سابقة طلقها قبل أعوام، وقد رباها على التستر والتخفي عن عيون الناس بدافع الحشمة والأخلاق، ومازلت أعجب كيف أقدمت على تلك الخطوة الجريئة في منزل أبيها المطوق بالحجب والأحكام الصارمة..

وفي اليوم التالي عند الظهيرة،أخذت عمتي قبول عصا الخيزران واستدعتني، فخرجنا من الدار، وفي طريقنا التقينا بموكب الأهالي، ومضينا

عبر الحي الصغير باتجاه المسجد، واستقبلنا الفقيه عبدالقادر في الفناء الخارجي، مازلت أذكر ذلك اليوم وكأنه الأمس القريب، حيث اعترض طريق عمتي قبول كشرطي سفارة، وطلب منها مغادرة المكان قائلاً بثقة رجال الدين:

–لا يجوز الاختلاط بالرجال في المسجد، لقد كنت منزوية في دارك، لا تغادريه البتة وهذا أفضل. ماذا جرى لعقلك يا بنت مبخوت؟

–هل تخاطبني يا عبدالقادر؟ سألت عمتي قبول وهي تتلفت حولها..

–نعم.. وهل هناك امرأة غيرك قرب المسجد؟

–أنت على حق، لقد صرت كبيرة في السن حتى كدت أنسى أنني امرأة..

وانسحبت بهدوء ولا أثر للاستياء والتوتر في صوتها، ولما عادت للدار حبست نفسها في حجرتها، وبعد مدة طويلة خرجت وآثار الدموع محفورة كالسواقي في وجنتيها الذاويتين، لم أرها في عمري كله محطمة وحزينة كما كانت في ذلك اليوم، لقد شعرت بالمهانة لأنها لم تتوقع الخذلان، ومن لا يعرف معنى الإباء الشديد والأنفة لن يتمكن مطلقاً أن يفهم شخصها المكابر، لقد أخبرتني عن نظرات الازدراء التي تتلقاها من عيون الناس، إذ يعتبرونها مثل شجرة غير مثمرة، وطالما يتساءلون عن مصير حقولها التي ورثتها عن عائلتها، ما أشد تباهي الأهالي بأنفسهم وأولادهم وأقاربهم! إنهم متيمون بأنفسهم وعائلاتهم إلى درجة ازدراء الآخرين، وكل قروي

يظن نفسه فريداً من نوعه مهما كان معدماً أو خسيساً، وأكثرهم ازدراء لها أولئك الأشخاص الذين لا يجدون ما يفخرون به، وهم الفلاحون رثو الثياب ذوو الأجساد القذرة والغرائز الحيوانية الذين لا يتورعون عن فعل أي شيء دنيء.. أما عبدالقادر فليس فلاحاً، بل هو موظف في مكتب الأوقاف بالمديرية، والآن يشرف على مسجد القرية، ويتقاضى غلال الوقف الخاص بالمسجد، لكي ينفقها على شؤون الإضاءة والنظافة وأحياناً الترميم وإصلاح أجهزة الصوتيات أو إعادة شحن بطارية الطاقة، أو ابتياع المصاحف وكتب الأذكار والمواعظ الرخيصة الثمن للمكتبة الدينية.. ويشاع أنه لا ينفق سوى الشيء اليسير من غلال وقف المسجد، لأن أهل الخير يتكفلون بتغطية معظم

النفقات، حتى الأشخاص المعدمون يساهمون ببعض النفقات الصغيرة، بل وينفحون عبدالقادر السمن والبيض مقابل دروس تحفيظ وتجويد القرآن التي يقدمها لأبنائهم في شهر رمضان، وما زالت عادة احترام الفقيه مرتبطة باحترامنا للشعائر الإسلامية، ومن أجل ذلك احتارت عمتي قبول واستاءت، وكان مبعث ذلك أنها مترددة بين أن تنتقم أو أن تظهر عاجزة عن فعل شيء، وهي لا تدري كيف تبدو في عيون الأهالي بعد ما حدث، وفي نفس اللحظة، وجدت نفسها مكبلة بقيود أخلاقية تجعلها تستشعر بذنب الانتقام من الرجل الذي يخدم المسجد، وهذا حسبما تظن هو إعلان حرب على الله رب العالمين، وكانت قد اعتزمت أن تحتجز غلال وقف المسجد، لكي تدع في نفسه

بعض الألم والحسرة، ليعرف فقط أنها تستطيع أن تفعل شيئاً ضده، حدثتني بذلك دون خجل، وتظل على الدوام تتذكر تلك النبرات المتعالية التي خاطبها بها، لقد كان يتحدث إليها عن حقد وكراهية، وكأنها امرأة دنيئة، لم يحترم سنها ومكانتها وخدماتها،وسألتني في المساء:

–هل صحيح أن الإنسان كلما طالت لحيته تناهى الصغر إلى عقله؟

–لا أدري.. ولكن بما أن اللحى لا تنم بالضرورة عن الخير، فإنها قد لا تنم عن الشر أو الغباء.

–لا بد أن يعرف الفقيه عبدالقادر من تكون قبول بنت مبخوت..

ثم أعلنت بأنها ستنفق على المسجد ضعف قيمة غلال الوقف. ولكن ليس على الفقيه أن يتولى هذه المهمة في حياتها.. وأثناء النوم حدثت مجزرة جديدة، وتناثرت جثث الضحايا في أزقة وباحات القرية، واستمرت المعركة الشرسة إلى بزوغ الصبح، وعند ذلك خرجنا من المنازل مذعورين، وأخذنا نتنادى للاطمئنان على بعضنا، وصرنا ننتقد رأي الفقيه عبدالقادر الذي لم تنفع نصائحه في شيء، بدا الأهالي محبطين، وفي الأيام القليلة التالية أفصحت عمتي قبول أن حقدها على الفقيه آخذ في التلاشي، بل وأوشكت أن تنسى سبب ضغينتها على الرجل، حتى وصل بها الحال إلى الاعتراف بأن الأمر خرج من يدها، ولكن وبينما كانت مسترخية في صباح يومٍ هادئ،جئت إليها

يتبعني عمران، وهو أحد جيران الفقيه عبدالقادر، ويريد أن يكشف عن شيء هام، ولكنها أرادت أن تؤجل الاستماع إليه حتى وقت آخر، لأن رغبة النوم كانت أقوى من أي شيء، لكنه كان قد أطل من باب حجرتها دون استئذان ومضى يقول:

–اعتدت أن أرى صفية عدة مرات في اليوم وأظن والدها يحبسها في المنزل..

–اسمع بني، لست أمين القرية أو مدير المديرية، أنا امرأة كبيرة أضناها السهر.. وبعد لحظة صمت وجيزة أردفت: هل ضبطكما معاً؟ أنا أدرك ذلك، لكني لا أستطيع أن أفكر الآن سوى بالنوم..

قاطعها قائلاً بحدة عاشق:

–ولكنك تستطيعين فعل شيء لردع ذلك البغيض، أمين القرية في حالة سفر دائم كما تعلمين، ليس هنا غيرك.. ألا تذكرين كيف أهانك الفقيه قرب المسجد؟

–عليك اللعنة، لقد نكأت جروحي المندملة، وحرمتني لذة النوم..

ونهضت للتو وقد ومض الشر في عينيها، واستفاقت شياطينها الخاملة، وخرجت إلى أزقة القرية تنادي الأهالي، فاستجبت أنا لها، وعدد من الرجال الذين أثارهم موضوع الكشف عن فتاة مختفية، وقادتنا بنفسها إلى منزل الفقيه عبدالقادر، وكان الهجوم مباغتاً حتى أنه حسبنا كوابيس، وفرك عينيه متطلعاً إلى صورنا بذهول، غير أن ملامح عمتي قبول كانت واضحة بحيث

لم يجهلها، كنا نتحرك بطريقة توحي بأننا نبحث عن شيء ما، زوجته "عزيزة" فرت إلى زاوية غائبة عن الأنظار وهي بملابسها الداخلية، وقد ظلت صورتها تلاحقني مدة طويلة، وكنت أردد في نفسي هذا المثل: **"حظ الرباح في التفاح"** كانت جميلة حقاً طرية الجسد ثلاثينية العمر، وربما تصغره بعشرين سنة، أما هو فقد وقف بمنتصف الغرفة عارياً، بجسد خشن غزير الشعر كالماعز، وبعد لحظات تحركت شفتاه ونطق هذه الكلمات بقوة:

–ماذا تفعلون في منزلي؟

–استر جسدك القذر أولاً، ثم اخبرنا عن صفية. أهي حية أم ميتة؟

–لقد أفقدتموني صوابي، وليس لكم الحق أن تدخلوا بيتي بدون إذنٍ مني.. أما أمر ابنتي فهو لا يعنيكم في شيء، أنا المسئول عنها أمام الله، ويحق لي أن أعاقبها حين تحيد عن الأخلاق.. أما هذا الآثم...

وصوب عينيه الناريتين إلى عمران المنكمش في الجوار، فتراجع متفادياً الاصطدام به، وكدنا نتراجع مؤمنين بحقها لمطلق في التعامل مع ابنته، مستندين إلى أعراف الشرف الريفية، ولكن عمتي قبول أصرت على معرفة مصير الفتاة، وتحت ضغطها الشديد قادتنا عزيزة إلى مستودع مظلم في المنزل، وهناك وجدنا ضالتنا موثقة بالحبال وعلى جسدها ندوب مزمنة وكدمات متقيحة، وبسرعة أخرجنا الفتاة المعذبة من المستودع وهي منهارة

تماماً، كان الفقيه عبدالقادر مثبتاً تحت ثقل خمسة رجال وحين رآنا نخرجها جعل يصيح:

–لا تكشفوا ستر ابنتي أيها الأوباش، أين تذهبون بها؟ إنها غير مغطاة بالجلباب الأسود ..أعيدوها... إنها بملابس غير لائقة.

–إنها مغطاة بالدماء والجروح أيها البغل.. إنها شبه ميتة يا عديم الشفقة، وستعاقب على ما فعلت لا محالة.. أجابت عمتي قبول..

وحملناها إلى قرب منزل " فارع الطويل"،ونظرنا بشك كبير إلى سيارته القديمة العاطلة عن العمل، وهي من التلف والسوء بحيث لم تعد تستخدم سوى للمشاوير القصيرة، أو لجلب أحجار الأضرحة من التل المتاخم للقرية، كانت حالة صفية غير قابلة للتأخير، وقد باتت

الرضوض التي على رأسها متقيحة وملوثة،وبعد دقيقة، خرج فارع على إثر ندائنا المثابر، قائلاً باحتجاج:

–أنتم تعلمون أن سيارتي لم تتجاوز القرية منذ زمن طويل، ولكن لدي اقتراح أفضل..

واقترح أن نستعير سيارة من قرية مجاورة، وهو سيتطوع بقيادتها إلى المديرية، لكن عمتي قبول رفضت هذا الاقتراح متعللة بالرغبة بعدم تضييع الوقت، ومارست ضغطاً أكبر عليه، حتى صعد مكرهاً إلى مقعد السائق، وجعل يدير المفتاح بتقاعس، وعند المحاولة الثالثة تحركت السيارة، وهذا أدهش صاحبها المتشائم، وجعلنا نعتقد أن عملية إنقاذ الفتاة محروسة بالحظ الجيد، ورافق صفية رجلان من الأهالي، وطلب عمران أن ينضم

إلى المسعفين، ولكن طلبه باء بالفشل، لأن التقاليد لا تسمح له بذلك، فنظر إلى وجه صفية النظرة الأخيرة،وهي مازالت على حالتها الأولى غائبة عن الوعي، مائلة الرأس إلى كتف أحد المسعفين، ثم مضى حانقاً، وهو لا يتوقع أنه لن يراها مرة أخرى على قيد الحياة ، ولما عدنا أدراجنا، رأينا عزيزة زوجة عبدالقادر تحمل حقيبة ملابسها وفي طريقها نحو منزل والدها قاسم وهي في غاية الحنق والكدر، ويبدو أنها فرّت إثر شجار حامٍ نشب بينها وزوجها، كانت عمتي قبول تتحدث عن الخطوات القادمة التي ستقوم بها، وأول خطوة هي الحرص على بقاء الفقيه تحت رقابتنا حتى تتضح حالة ابنته، وظلت تذرع طرقات القرية منتفشة كدي كرومي، متباهية كونها

أنقذت الفتاة، وأينما ذهبت تنشر تفاصيل الهجوم الكاسح على وكر الفقيه السري، موحية إلى موهبتها الفريدة في اشتمام الشر المتخفي وراء اللحى والعمائم، لكن الأهالي كانوا منشغلين عن ثرثرتها بالتنقيب عن سبب إقدام الفقيه على تعذيب ابنته، بل تكهنوا أن وراء ذلك قضية شرف، ورغم ذلك تعاطفوا مع الفتاة كما هي عادتهم عند الكوارث.. وفي الليل غفوت دون أن أشعر ورأيت المسعفين بين الأموات، وكان هذا غريباً لاعتقادي أن المسعفين لا يموتون أثناء محاولتهم إنقاذ حياة شخصٍ ما، ولم أجرؤ على الإفصاح عما يجول في نفسي، وهو أن المسعفين قد أصيبوا بمكروه، فقد كنت أخشى أن يخيب حدسي، أو أن أبقى في نظر الأهالي غراباً مشئوماً

ينعق عند كل حادث.. صحوت مع الشروق وأول خبر أسمعه هو نبأ سيء، كان هنالك أحد الأهالي يتحدث في الخارج عن حادث، كانت الكلمات تخرج من فمه مشتتة تحتاج من أجل فهمها إلى قدر كبير من التركيز، ووجدت عمتي قبول منهارة تصرخ قرب منزل فارع الطويل وسط حلقة باكية من أقارب المسعفين، وبعض الأهالي يحاولون تهدئتها، وسمعتها تقول بصوت ضعيف:

–افعلوا بي ما شئتم، أنا من أجبرته على قيادة هذه السيارة الملعونة، أنا السبب.. أنا السبب ..

وصوت رجل راشد يجيب:

–إننا نجني حصاد أيدينا. ولن تتركنا الكوابيس والحوادث..

وصوت محبط آخر:

-إننا نتعرض إلى نوع من الاجتثاث المتعمد..

وهكذا تتابعت اعترافات الأهالي، ولم يمر النهار حتى عرفوا ما حدث للمسعفين، فقد حملتهم السيارة المتعبة دون مشاكل عبر طريق ترابي وعر، ثم أصابها العطل الأول بعد أن اجتازت قرابة عشرة كيلومتر فقط، حيث تعطلت عند مدخل قرية صغيرة، وسرعان ما شكل أهلها حولهم حلقة صغيرة، يحدوهم الفضول والنجدة، واستطاع أحدهم أن يضمد جرح الذراع المكسور بواسطة حبل متين، وسارت السيارة مرة أخرى، ولكن دون مكابح، وهذا ما اكتشفه فارع الطويل بعد أن اجتاز عدداً قليلاً من الأمتار، وجعل يكافح في توجيه السيارة متمنياً ألا يظهر أمامه أي

شيء يدعوه إلى اللجوء إلى دواسة الفرامل، واستمرت الآلة المعطلة في الهرولة حتى اصطدمت بصخرة ضخمة كانت منتصبة على جانب الطريق، ووقع الأمر المحتوم الذي لا مفر منه، وقام أهل الخير بنقل المسعفين والفتاة إلى مستشفى المديرية، واستطاع فارع الطويل أن يصمد قليلاً ليحكي لشرطة المديرية شيئاً عن الكوابيس والحادث، ثم دخل قسم العناية ولم يخرج منه حياً، أما الآخرون فكانوا قد لفظوا أنفاسهم أثناء الحادث، وقبل شروق اليوم التالي، أتت إلى القرية سيارة تحمل جثث الضحايا، وحملوا إلى المسجد لكي تتشرب أرواحهم بالطهر والسلام، وأقبل ذووهم تسبقهم أصواتهم الباكية، وحف بهم المواسون من كل جانب، والتقى الفقيه عبدالقادر

وعمران، وهجم كلٌ منهما على الآخر معتقداً أنه سبب المأساة، وتدخل الحاضرون من الأهالي فاصلين بينهما، كان وجه عمران مفعماً بالتعاسة ووجه الفقيه مشحوناً بالتأثر، وأثناء مراسم الدفن كانت عيون الأهالي تتفحصهما بعناية، لقد بدا الفقيه عبدالقادر نادماً، ولكن عمتي قبول اعتبرت أن أقل ما يفعله أي مجرم هو تمثيل هذا الدور الخادع، لقد ساعده القدر أن ينجو من المساءلة، فاختفت جريمته داخل هذا الحادث العارم، وهي لا تحب أن تفتح على نفسها باباً لن ينغلق بسهولة، لأنها مسئولة عن خروج المسعفين في هذه السيارة التالفة،لذلك لاذت بالصمت متسترة خلفا لحزن، وخيل إلي أن أخبار القرية انتشرت في كل حدب وصوب في المديرية، فقد أطل علينا

مندوب الأوقاف بعد بضعة أيام، أتى متسربلاً بمعطف طويل يصل إلى ركبتيه، وعلى رأسه عصابة سوداء كتلك التي نراها على رؤوس الفدائيين، كان السجل الذي يحمله مميزاً بشعار الأوقاف، مئذنة عالية تنتهي بهلال معقوف، وما إن وقف بمشارف المقبرة يتأمل حتى أتت عمتي قبول يتبعها عدد من الأهالي، وقال موظف الأوقاف مبيناً مهمته دون مواربة:

–نما إلينا في المكتب أن الغلال الموقوفة للمسجد صودرت، وجئت أنظر في صحة ذلك، وأسمع من جميع الأطراف..

وطلب شهادة الفقيه، فأقبل يمشي كحيوان مذعور وقال:

–نعم، أشهد أن قبول بنت مبخوت احتجزت غلال المسجد..

صاحت عمتي قبول بحدة:

–لقد أوقف أجدادي الأرض.. وسأشرف على نفقات المسجد بنفسي..

وسجَّل الموظف شهادة المحيطين به، ثم سأل فجأة:

–هل الأرض التي نقف عليها مقبرة أم لا؟

–إنها كذلك، وهي أرض مهملة تابعة للأوقاف. والغريب في الأمر أن مكتبكم لا يهتم إلا بمتابعة غلال المساجد..

وتنهدت عمتي قبول عقب عبارتها،وقال الموظف:

-إنها حقاً مهملة،مطمورة بالقاذورات، وقد سمعت في قسم شرطة المديرية عن أموات يطاردون الأهالي في إحدى القرى، هل سمعتم بشيء غريب كهذا؟

-بل نعاني هذا الشيء الغريب، ويمكنك أن تنام هذه الليلة في علية هذا الدار لتجرب ذلك..

رمق الدار الكبير باحترام، ثم أجاب بارتباك:

-لا داعي للتجربة، إن مجرد التفكير بهذا يجعلني أشعر بالقشعريرة، وهناك كثير من الناس يلجأون إلى المُقرئين أو التمائم أو (المُسفِّلات والمُسفِّلين)[٦]..

وأعقب بعد صمت قصير:

---

[٦] المسفلون: الوسطاء الروحيون.

–اطمئنوا، سأعود إليكم في الوقت المناسب..

وأغلق السجل ومضى، وأصبنا بخيبة أمل، لأن هذا هو أول موظف حكومي يفد إلينا، ورغم ذلك لم يعدنا بأي مساعدة، بل أوحى إلى وسائل قديمة لا نجهلها، وقد جربنا المقرئين دون جدوى.. وهكذا أصابنا اليأس والقنوط، حتى تجرأ البعض على مخالفة الروتين المتبع، فتوجهو اإلى الحقول، ومارسوا أعمالهم بشكلٍ طبيعي، وذهب البعض الآخر إلى المنازل بقصد الاستجمام، وما كادت عيونهم تكتحل بالنعاس حتى أتت مجاميع الموتى بأعداد مهولة، بما في ذلك المسعفون الذين ماتوا مؤخراً، وعلت صرخات الفزع في المنازل، ونهضوا بوجوه مصفرة وأفواه جافة، وخرجوا إلى ساحة القرية طلباً للأمان، ولما

حل الليل أقبلت الخيالات الرهيبة، وانحشرت العائلات في غرفة واحدة داخل كل منزل، وطلبت عمتي قبول منّي المبيت داخل حجرتها، كان جو الدار موحشاً وعيدان الثقاب لا تشتعل، لذلك قطعنا شطراً من الليل في ظلام دامس، حتى انبعث الضوء بعد سلسلة من المحاولات اليائسة والابتهالات، ثم صرنا لا نفترق، نمشي متعاقبين وعمتي قبول متشبثة بي من الخلف، لأنها كانت تخشى أن تصطدم بشيء ما على السلالم العتيقة، ومن لحظة إلى أخرى، تتلفت وراءها كلما سمعت شيئاً ما، وربما تناهى إليها صوت خفقان قلبي القوي، فحسبته وقع خطوات تتعقبنا، في تلك الأيام، عشنا أسوأ الأوقات، مرهقين بفعل السهر والكوابيس، وبدت وجوه الأهالي هامدة كالحة

كقطع الفحم، غارت عنها الابتسامات وعلامات الارتياح، وأصبح أتفه الأشياء سبباً وجيهاً للشجار، وطريقاً سهلاً للوصول إلى قمة النزق، وجرت البذاءات في أفواه الفتيان جريان الماء في الجداول الغزيرة، وباتوا يتجادلون حول هوية المهدي المنتظر[٧]، أهو سني أم شيعي؟ من العرب أم من الفرس؟ ومتى سيخرج ليوحد العرب، ويطرد اليهود من أكناف بيت المقدس، وغير ذلك من الأمور التي لا تسمن ولا تغني..

ويحدث كل ذلك، بينما أمين القرية ما يزال غائباً منذ مجيء المقرئين، وخلال الفترة الماضية التي كنا نعاني فيها لم يكن له أي أثر، حيث

---

[٧] المهدي المنتظر: هو المخلص في موروث بعض الطوائف الإسلامية الذين يعتقدون أنه يأتي قبل قيام الساعة ليخلص المسلمين من العناء.

كان يتنقل من سفر إلى سفر، ومن مكان إلى مكان، يذهب إلى المديرية ويمكث عدة أيام، ثم يعود إلى القرية ليقضي يوماً واحداً، ثم يغيب مرة أخرى، وتكون غيبته طويلة، وفي كل مرة يعود، يكون محملاً بما لذ وطاب من المؤن والملابس أو الأثاث أو المستلزمات الأخرى، ويعلم الأهالي أنه يذهب إلى أزواج بناته أو إلى بعض معارفه، محملاً بمنتجات الريف من أكياس البُنْ إلى اللبن والسمن والحبوب، فيستضيفوه ويمنحوه كثيراً من منتجات المدن، ليس هذا فحسب، بل يغدقون عليه النقود ويسمونها مصاريف السفر تجنباً للحرج، فيأخذها عن طيب خاطر ويعود منتفخاً متباهياً.. ولهذا نجد أن منزله ممتلئ بالفراش الوثير، وعلى معصمه ساعة سويسرية باهظة

الثمن، وعلى جيد زوجته عقد ذهب فريد، ويرتدي أبناؤه ملابس جديدة، وكان يغيظ الأهالي قائلاً هذا المثل اليمني الشائع: **إذا قَلَّتْ رجالك صاهرت**.. ويرمي بذلك إلى أنه يحسن اختيار أصهاره، ومن ثم يحظى بالخير والمنافع، وهو كما عرفناه يحتقر الأهالي،و يتعامل مع كل شخصٍ منهم على حسب منزلته ووجاهته، أما أنا فيكرهني أكثر من الجميع لاعتراضي على دخول الجرافة إلى المقبرة، وربما بفعل تشاؤمي الشديد، أو لأسباب أخرى لا أعرفها، فأحياناً تجد هناك من يكرهك بلا مبرر، وقد سمعه أحدهم يقول:

"إنهم يحسدوني على ما حباني اللّه من جاه، أما وصي المقبرة ناصر، فهو عجينة (خراء) كلما

مررت بجانبها سد أنفك، ولولا ثقل دمه وشكواه التي لا تنتهي كان سيصبح شخصاً أفضل".

وهو على ما أظن يحب نفسه وأولاده فقط، ويبدو شفيقاً رحيماً على بناته وهن صغيرات، وعندما يكبرن يسعى إلى إسعادهن على طريقته الخاصة، حيث يبحث لهن عن أزواج من خيرة الرجال حسب قوله، ولا يسألهن عن رأيهن في ما يظنه مناسباً، ويكنى أحياناً بأبي ريشة، وهذا هو اسم ابنته الوسطى، وكانت جميلة وودودة بحيث تقدم لخطبتها عدد من أبناء الأهالي، ولكنه ردَّهم خائبين تكاد قلوبهم تنفطر ألماً، وما زال يكافح ويقاوم الخاطبين مثل ثور أسباني مصارع، حتى عقد قرانها على نجل رجل أعمال شهير من منطقة نائية، وكان الأخير رئيس مجموعة شركات

عملاقة في صنعاء، لكنه شخص تقليدي متدين،له زوجات عديدات ثلاث أو أربع، يحسب المرأة كالنعل الذي يستخدم حتى يبلى ثم يرمى، ليستبدل بجديد، ولكن النعل أكثر التصاقاً بالإنسان، أينما ذهبت يذهب معك، أما ريشة بنت أمين القرية، فقد دفنت حية بين جدران أربعة، وعلى الرغم من أنها تقطن داخل فيلا فاخرة في شارع حدة، هي وزوجها الوسيم المدلل الذي ما يزال تحت نظر والديه، وطفل أبهجها مجيئه إلى هذا العالم ليشهد معاناتها، لكنها لا تجد أي متعة في محيطها الباذخ، ذلك أنها لا تستطيع الخروج إلى دورة المياه إلا بإذن الابن المدلل، حتى النظر من النافذة إلى الخارج يعتبر مجازفة كبرى، وفي لحظات نادرة من العام يسمح

لها بزيارة أهلها ليوم أو يومين، فتحس أنها خرجت من الظلمة إلى النور، وعندما يحين موعد أوبتها إلى بيت الطاعة، تتشبث برداء أمها لكي تحول دون عودتها إلى وضعية السجين، أو تؤجلها قليلاً على الأقل، فيهب والدها صائحاً:

–رافقتك السلامة يا ابنتي، إن أهل القرية يحسدوننا على هذا الرجل، ثم يكفي إنه فلان ابن فلان، وصيت يملأ اليمن.

–آه، إنني أعيش في بيئة غير بيئتنا الأولى، لا أستطيع أن أجيب على الهاتف، ولا يسمح لي بمشاهدة التلفاز، أو زيارة جاراتي، وليس بيني وبين الرجل الذي يدعى زوراً زوجي أي علاقة أخرى عدا ما يعطيه الرجل للمرأة على الفراش، إنني أسوأ من خادمة أو قحبـ..

–اصبري... يا بنيتي،الحياة قصيرة تمشي دون أن نشعر، إننا أحياناً نمقت أشياء كثيرة، ثم سرعان ما نألفها. تخاطبها أمها "نعمة" بحنو..

–أبي.. دعني معك أكدح في الحقول كما كنت أفعل، بل أستطيع أن أربي الأبقار والعجول، وأجلب الماء فوق رأسي من المورد..

–هيا.. اذهبي.. لا تركلي النعمة في خاصرتها. يجيب بحزم.

تتحرك إلى الأمام ببطء، مشيتها مضطربة بسبب التخمة، والغريب هو أن اسمها ريشة، لأنها كانت اسماً على مسمى كما يقال، خفيفة تتمايل كالغصن الرشيق، ريانة، باذخة الجمال، وبشوشة، والآن وخلال عام واحد على زواجها،

صارت أكبر من سنها بكثير، وغابت ملامحها وسط كم هائل من اللحم المترهل، وقد رأيتها وتحدثت إليها مرة واحدة فقط، حدث ذلك قبل يوم واحد من رحيلها، كان الأهالي مجتمعين في منزل والدها عقب عودته من السفر، والأرجح إن ما كانوا يقومون به هي حالة مقاومة للإحباط الذي يشعرون به، أو محاولة لصرف أفكارهم المشئومة حول موضوع الأحلام، وقد أفرحهم رجوع الأمين من العاصمة بعد غياب طويل، فأتوا يبثون إليه أشجانهم وأحزانهم، ويخ برونه عن إخفاق المقرئين، وموت المسعفين وتفاقم الكوابيس.. وفي ذلك اليوم،كنت غافياً وقت الأصيل، ورأيت الفتاة ريشة تنضم إلى المحتجين من الموتى، وحين سألت عنها،قالوا:

–هذه المرأة تموت في بلاد بعيدة.

–لماذا أتت إلى المقبرة؟ سألت..

–لتنتقم .. أجابوا ..

ذهبت راكضا إلى منزل أمين القرية صويلح، وهذه الرؤيا تلتهم أحشائي كالنار، و استقبلتني ريشة عند باب دارهم بوجه باسم قائلة:

–الأهالي يتحدثون عن المقبرة والأحلام. ادخل، ما زالوا مجتمعين.

–جئت من أجلك، من الخير ألا تسافري إلى أي مكان.. قلت لاهثاً.

–لِمَ لا أسافر؟أنا امرأة متزوجة، والرجل ينتظرني على أحر من الجمر. أجابت بفتور.

–الموت ينتظرك، لقد رأيتك بين الموتى.. أيتها التعيسة إياك والسفر.. صرخت في وجهها..

وفي تلك الوهلة خرج أمين القرية وطردني وهو يصيح:

-اذهب أيها الملعون، إنك سبب كل بلوى تحدث في القرية. لا أدري لماذا تتدخل في شئوني على الدوام؟ لا شأن لك ببناتي..

وابتعدت عن منزله كرهاً،وفي عيني ريشة كلام كثير تود أن تفضي به،ثم سافرت دون أن أشعر.. وأفاق الأهالي في يوم قريب صارخين مرعوبين بعد مطاردة عنيفة مع الموتى، وهذه المرة كانت ريشة تطاردهم مع الآخرين، واستغربوا أن تأتيهم مع الموتى،وهي ما زالت على قيد الحياة، وفي المساء ورد إلينا الخبر:

-ريشة ماتت..قال حامل النبأ..

–ماذا حل بها؟ سألت بأسى.

–ابتلعت جرعة كبيرة من الأسبرين. وعُثر على علبة الدواء قربها فارغة.. أجاب الرجل.

ورحل الأمين وعائلته إلى المدينة ليحضروا مراسم الدفن، ويبتعدوا عن القرية بعض الوقت..

الفصل الرابع

بدت قريتنا ساكنة في الظاهر، وعلى ملامحها هالة غريبة من الغموض والخواء، ولولا ضجيج الأطفال الخارجين عن الروتين اليومي للأهالي، كان من الممكن أن تتحول إلى منطقة مقفرة لاحس فيها ولا حركة، وها قد صار الصغار يأتون إلى الباحات الميتة لكي ينعشوها، فيلعبون ويركضون هنا وهناك دون أن يعوقهم شيء، وكأنهم عفاريت عاصية خرجت للتو من قماقمها، لتثير سحابة من الغبار.. في السابق كانت الأماكن الفسيحة متنفساً للبهائم والأهالي الذين يزودونها بالماء وأعقاب الذرة والأعلاف، وهؤلاء لا يكفون عن مضايقة

الصغار ومطاردتهم متعللين بالحرص على عدم إزعاج حيواناتهم، أما الآن فقد بات الصغار أسياد القرية الحقيقيين حتى وقت متأخر من الظهيرة، وعقب الصلاة في المسجد، يفارق بعض الأهالي النشطين فراشهم متجهين صوب بعض الأعمال الملحة، وفي مثل هذا الوقت يكون الجو حاراً خانقاً، والشمس متعامدة تكوي الجباه والوجوه، مما يجعل البعض من الأهالي ينتظرون حتى الساعتين الأخيرتين من النهار، وهي مدة قصيرة لا تكفي بمتطلبات الحقول، وهناك من حرث الأرض في بداية الصيف، وألقى فيها بذور الذرة والفاصوليا، وآخرون كانوا محبطين بسبب عدم هطول المزيد من المطر، كما لم يسعفهم الوقت الشحيح المتوفر لديهم أن يحرثوا كل الحقول،

بينما تظل البقية جرداء مكسوة بالحشائش والشجيرات الدخيلة، وكنا قد وصلنا إلى مرحلة متقدمة من التكيف مع هذا الوضع، حتى أصبحنا نعتقد أننا لم نتغير أبداً، وأن قريتنا كانت على هذه الشاكلة منذ عقود مضت، ولا يستطيع أن يندهش لحالها إلا الزائر الذي فارقها من قبل ثم عاد إليها، وها هو أمين القرية صويلح جوهد يذرع أزقة القرية صارخاً حتى أيقظ النائمين من سباتهم العميق، فهرعوا إليه، وفي مقدمتهم عمتي قبول، وانقضت بسرعة لحظات المصافحة بالأكف الناعمة والخشنة، ثم أخذ الواصل لتوه من السفر يبدي دهشته من الأوضاع المتردية في القرية، بما في ذلك الخواء والتصحر والإهمال الواضحين في الأرض، والإحباط المرسوم في الوجوه المتورمة، وسار ونحن

خلفه حتى أشرفنا على المقبرة، وهناك حدج حقله المندثر بنظرة زائغة هي الأولى منذ شهرين، آملاً أن يراه في وضع مختلف، وسرعان مارد بصره إلى الأهالي قائلاً بحنق:

–لقد قطعتم لي وعوداً بمساعدتي..

قاطعته عمتي قبول بنبرات حادة نيابة عن الأهالي:

–لسنا مجبرين على الوفاء بذلك، بعد أن تركتنا مدة طويلة نهباً للكوابيس، وبدلاً من أن تأتي إلينا لتخاطبنا بخجل بالغ ،أتيت متبجحاً .

–أنتم هكذا لا تعترفون بي إلا في الأوقات العصيبة، بل تحسبون أني غادرت طوعاً.. لقد فقدت ابنتي، ألا تدركون ذلك؟

–والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

انكمش بموضعه يفكر بعض الوقت، ثم رد قائلاً بعزم:

-في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم نجتمع، وأطرح قراري النهائي..

وتفرق الأهالي حانقين..

في الشهرين الماضيين، اختل عقل أمين القرية صويلح جوهد، وصار يفكر بصوت مسموع، سمعه الجيران يتحدث عن جملة من الخطط والحلول، لقد فكر أن يبعث رسالة استغاثة إلى المديرية، لكن الفكرة بدت له غبية وغير منطقية، فماذا يمكن أن يكتب فيها؟ الموتى تطاردنا أم الخيالات أم الكوابيس، أي من الألفاظ ألطف وأكثر دقة، أم يقول: "إننا نشكو إليكم ما نعانيه من أحلام مخيفة ونطلب المشورة والمساعدة"، ما أغرب هذه

الشكوى، لابد أن يعتقد المدير أنها مزحة أو خدعة، وسوف تأتي ردة فعله معبرة عن الغضب أو السخرية أو اللامبالاة، حتى وإن اقتنع بما جاء في الرسالة، ليس في يده حيلة، بل إن جهازاً أمنياً بحجم الإنتربول الدولي وقف حائراً، وعندما زار مكتبه خلال إقامته في صنعاء، مازال يذكر ذلك الوجه النسائي المرتاب الذي غفر له الريبة تهذيبه وحلاوته:

–هل قلت إن الأموات تهاجمكم ..؟

–نعم،أثناء النوم.. ونطلب المساعدة.. أجاب موضحاً..

–للأسف، لسنا متخصصين بمثل هذه القضايا، نحن نطارد المجرمين المطلوبين للمحاكم

الدولية، إننا شرطة دولية نتعامل مع الدول ونحترم سيادتها..

–ولكن الأموات مجرمون في قريتنا، إنهم يفخخون لياليا بكوابيس مزعجة..

–آسفة، لا أستطيع مساعدتك..

كان مشوشاً لأن طلبه قد رفض، عن أي سيادة تتحدث هذه الأنثى، كان يود أن يضيف إلى علمها أن الموتى لا يحترمون سيادة أحد، وها قد اخترقوا سيادة هذه المدينة، وصعدوا إلى غرفته في الفندق الذي نزله بحي حدة الراقي، ومن ثم هاجموه بشراسة، ولكنه فيما بعد استضاء بنصيحة شيخ سلفي، وذهب إلى دار الإفتاء ليطرح قضيته، وسرعان ما أخذ نسخة الفتوى من مفتي السلفيين الشيخ نجم الإسلام المحروقي، وقد وجد فيها ما

أبهجه، فاهتز كريشة طائر كناري، وعاد وفي يده صك صريح يخوله أن يفعل ما يشاء مادام يحمل منصب أمين القرية..

وفي آخر الأسبوع، وتحديداً في صباح الخميس، اجتمعنا، وجاء الأمين صويلح جوهد مرتدياً ملابس قشيبة تناسب القرار الذي يحمله، وسرعان ما استل ورقة رسمية مهيبة عليها شعار وختم دار فتوى الجماعة السلفية، ثم قرأ الفتوى وكلنا آذان صاغية، وحين انتهى تسمر بعناد ينظر إلى وجوهنا وفي نظراته قرارات صارمة.. وقالت عمتي قبول بضيق:

–هاه، والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

–سأفعل بموجبها ما يمليه علي واجبي كأمين..

–اسمع، لن نسكت على أفعالك المتعجرفة، ستجلب المآسي إلى القرية، وحين تداهمنا الكوابيس سوف تفر إلى المدن..

ووقفت أمامه بتحدٍ شاهرة عصاها في الهواء، في حين بدا الأهالي يشجعون أنفسهم على إبداء أفكارهم الخابية، وكأنما ليثبتوا وجودهم أو يوحون لبعضهم بأنهم لاعبون في ميدان واحد، وليسوا مجرد متفرجين أو مستمعين، فالكل بلا استثناء صاروا عرضة للكوابيس، وهذا الشأن بات يؤرقهم كثيراً، وينبغي عليهم حسمه، وحاولوا أن يرفعوا أصواتهم عالياً، ولكني رأيتهم يتراجعون وكأنهم أحسوا أن الوقت لم يحن بعد لفعل ذلك،

وأن عليهم قبل ذلك سماع أقوال الوجيهين القويين، الأمين صويلح وعمتي قبول، بينما أشغل نفسي بسماع صوت الأول ومراقبة حركاته المرتبكة، وهو يحاول التملص من موضوع الفتوى معطياً وعوداً عرقوبية بحسن التصرف والحكمة، وأخيراً صاح بجذل مصطنع:

–والآن حان وقت تسليم الهدايا..

وقبل أن نلتفت إلى خطة هروبه الماكرة من الضغوط التي تمارس عليه، كان قد أبرز كيس الهدايا الضخم، وجعل يمر على المجتمعين نافحاً كل شخص مغلفاً أنيقاً، ويحوي شالاً (صنعاني) أبيض وحلوى قباطية محلاة بالفستق وجوز الهند، وتخطاني وكأنه أخطأ، لكنه لم يستطع

إغفال حضور عمتي قبول اللافت، فأعطاها هديتها وأطراها مبتسماً بمكر:

-إنها لا تليق بمقامك..

-لا تشغل نفسك ...

وتملكني القلق من هذا اللطف غير المعهود، ياترى ماذا يعتمل في نفسه؟ كنت أقول لنفسي بغضب: "ما يحدث للقرية لا يسر عدواً أو صديقاً، والأمين يود إقحامنا في صراع دائم مع الموتى، ولذلك السبب يوزع الهدايا على الأهالي، ليبتز ضمائرهم، وأينما وجدت المتاعب في قريتنا لابد أن نجد له موطئ قدم فيها، ومن يدري ماذا يريد أن يفعل هذه المرة، (وأشرت بالسبابة ناحية المقبرة)، لن يدع الأموات يهنئون برقادهم، وأولئك لن

يدعونا وشأننا، حتى يُعجّلوا آجالنا، أو يدفعوا بنا إلى الجنون، لا أحد يشعر أننا نستهلك ونتآكل كل ليلة، وبعد سنوات سنرقد معهم في الأسفل، ثم نتحول مثلهم إلى كوابيس تقض مضاجع الأحياء.. ولابد من كبح شرور صويلح جوهد قبل أن يؤذينا جميعاً، وهو الآخر ينبغي أن يُحمى من أفكاره المضللة، إن هذا الرجل غير مكترث غير متزن..." ولا أجد لفرط ارتباكي أي كلمات إضافية..

وكما ظننت تماماً، احتدم الخلاف بين الأهالي حول كيفية التعامل مع الموتى، وحدث ما يشبه الحرب الباردة بين فئتين، بحيث أخذت كل فئة تستعرض قدراتها ومهاراتها، وتتميز فئة

صويلح جوهد بأنها تمتلك روحاً شريرة تميل إلى العنف، إلا أننا نفوقهم في العدد ولا نميل إلى استخدام القوة، وظن الخصوم أن هذه السمة تعني الخوف، مما جعلهم يرهقوننا بالاعتداءات المنظمة على المقبرة، واستغلوا حملة تطهير الجزء الباقي من الحقل المندثر، وكوموا الركام المستخرج منه على شكل مصدات عملاقة، ثم أخذوا يزحفون ببطء في عمق الأرض الموقوفة، وجئت إلى ذلك الموضع المتضرر، حاملاً كيس النايلون المخصص للرفات، ولم أسلم من سخريتهم وتعليقاتهم اللاذعة، ورغم ذلك أديت عملي كما كان يؤديه أبي وجدي، وأتت الكوابيس كعادتها في المساء، لكنها أصبحت مألوفة جداً، كما لو كانت جزءاً من تراثنا وتقاليدنا، ولم يعد هناك من يخشاها أو

يكترث لأمرها، وصار الأهالي يطلقون عليها اسم "بهارات الليل"، وقد أمعن أمين القرية صويلح جوهد في السخرية، وقال إنه أصبح يخشى غيابها، أكثر مما يخشى حضورها، وعلى العكس من ذلك، ظلت عمتي قبول متشائمة، وتفسر ما يجري بأن نذر الشؤم قد انتقلت إلى مستوى أعلى، عابرة من الخيال إلى الواقع، ومن الزيف إلى الحقيقة، ومن الكوابيس والخيالات المخيفة إلى الصراع بين الأهالي، والآن وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد، ينبغي الحفاظ على قدر معقول من الهدوء، وهذا يعني أن يرخي أحد الفريقين طرف الحبل المشدود قبل أن ينقطع، ويسقط الجميع أرضاً، وحين عدت من المقبرة تكسوني الأتربة ويعتريني الإرهاق، كانت عمتي قبول قرب النافذة

شاردة الذهن تشفط أدخنة التبغ بشراهة، وحين رأيتها قلت بضجر:

–ها قد عدت، ما زال رجال صويلح يعبثون في المقبرة..

–اسمع، لم يعد أحد يسمع نداء الموتى، إنهم أكذوبة عظيمة، إننا الآن متعثرون ببعض الأخطاء، وينبغي أن نعيد النظر فيما يجري..

–لماذا تقولين ذلك؟

–أخشى أن يفوت الأوان على عمل شيء صائب...

ومضت تبتهل وتفرك حبات السبحة في خشوع قل نظيره، ثم تدعو الله أن تنتهي الأمور على خير.. لقد كانت تظن أن هناك قوة غامضة بالدار تعبث بأعصابها، ومن حين إلى آخر، تشعر

أن هناك عيوناً ترمقها من الجدران، وسرعان ما تقف خصلات شعرها البيضاء ويزداد خفقان قلبها فتلوذ بحجرتها.. وعلى هذا النحو سارت حياتها قدماً، وعندما هاجمتنا الأحلام المرعبة كانت تظن أنها تعرف أين يكمن الخلل، لكنها وقفت عاجزة عن فعل شيء، لم تستطع كبح شرور صويلح جوهد، الذي انطلق يهين المقبرة بشكل معلن، حتى صار أنصاره ينزعون الشواهد القليلة المتبقية، ويحطمون الأضرحة السليمة، ويرمون الرفات بعيداً، وعند هذه اللحظة فقط، نزلنا إلى المقبرة، واشتبكنا بالعصي والهراوات وتقاذفنا بالعظام والأحجار، حتى أثخنا جميعاً بالجراح، وكأنما شعر صويلح جوهد أنه مهزوم في الصدامات المباشرة، لذا دعا أتباعه إلى استخدام البنادق

والمسدسات، فاندفعوا بشكل جنوني نحو باحة القرية، وأطلقوا النار على النوافذ والقمريات، وتلقى دارنا زخَة من الرصاص، وثقب عيار منها طنجرة معدنية في بيت النار، واستبد بنا الهلع، إذ لم نتوقع أن تتحول منازلنا إلى أهداف سهلة للبنادق، وأوشك الرجال أن يخرجوا لقتالهم، لكن النساء تشبثن بهم وهن ينتحبن، وتحلق حولهم الأطفال، وقلت لنفسي وأنا أرى ما وصلنا إليه من حال: "الكوابيس رغم بشاعتها أرحم من القتال بالبنادق". وتمنينا من قلوبنا أن يتدخل المجلس المحلي لفض النزاع، لكن لحسن الحظ كف المعتدون عن إطلاق النار من تلقاء أنفسهم، وكأنما أحسوا هم أيضاً بالعواقب التي ستجرهم إليها أفعالهم، وتشجعنا إثر ذلك وبدأنا نتسلل إلى

الباحة الواحد تلو الآخر، وتصاغر وجه أمين القرية وهو يرى عمتي قبول الخائرة القوى تقف أمامه وجهاً لوجه، وهي ممتلئة بالغضب الشديد، وتنظر إليه بازدراء، أما هو وأنصاره فقد بدوا في حال من الارتباك لا يحسدون عليها، وقالت تخاطبه بعصبية:

-إن ما تقوم به يثبت عدم قدرتك على إدارة شؤون القرية، ينبغي أن تدرك ذلك..

-كيف ذلك؟ أنا أحاول أن أستعيد مكانتي، وأفرض النظام..

-احذر أن تثير غضب الأحياء أيضاً. كما أثرت غضب الموتى، إننا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا... لسنا أقل كرامة من سكان المقبرة..

وضحك صويلح جوهد باستخفاف.

بعد أيام قلائل، استقبلنا وفداً رفيعاً من وزارة الأوقاف، واعتقدنا بأن مشاكلنا سوف تناقش، وحضر أمين القرية كطرف فاعل في القضية، وبرزت عمتي قبول على رأس الطرف المناوئ، واكتمل المشهد بحضور الأهالي، وكشف الوفد عن سبب الزيارة، وانطوى على ذلك كثير من اللغط، وشعر الجميع بالخيبة الشديدة، لأنهم جاءوا من أجل استعادة أموال الوقف المحتجزة، ومن بينهم برز الموظف صاحب السجل الذي زار القرية من قبل، وكان بصحبته شخص رث الثياب غائر العينين شاحب الوجه ناشف العود، وعرَّفه الموظف على أنه صديقه " سعد المُسفِّل"، وهو وسيط روحي يمتلك موهبة التواصل مع الموتى، وهي عملية معقدة خطيرة يتعرض خلالها الوسيط

للموت المؤقت، وتذهب روحه عبر متاهات معتمة إلى المقبرة، وطلب هذا الرجل أن ننثر الرماد والملح في قاعة غرفة مظلمة ثم نتركه وحيداً، وأكد علينا ألا نفتح المكان مطلقاً، ووفرت له عمتي قبول إحدى حجرات الدار الفارغة في الطابق الثاني، فدخل إليها وأوصد بابها من الداخل، لأنه يخشى أن يلمسه كائن حي أثناء غياب روحه، وفي هذه الحال، لن تعود الروح إلى جسده، إذ ستظل هائمة في الأسفل إلى الأبد.. بهذا بررت عمتي قبول سبب خلوته وحيطته، وشيئاً آخر، وهو أنه سيظل عارياً مستلقياً على ظهره بلا حراك لمدة غير محددة قد تصل إلى بضعة أسابيع، أما الرماد والملح فإنهما يُبْعِدانا لأرواح الشريرة عن طريق روحه الذاهلة المرعوبة، ونصب الأهالي

الخيام حول الدار، متريثين لما ستؤول إليه رحلة "سعد المسفل"، بينما استطاع أمين القرية أن يحظى بامتياز استضافة وفد الأوقاف، وذلك لكي يثبت أنه ما زال يمارس أدواره القديمة، وأنه لم يتزعزع أو يفقد تأثيره بسبب الأحداث، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكوابيس من الدخول إلى أحلامهم، وشق الليل صراخهم، وهم يرون المقبرة تثور مثل بركان، قاذفة الهياكل العظمية في الهواء كالحمم، وما إن تقع على الأرض حتى تتحول إلى أشخاص عراة مشوهين يزحفون على بطونهم صوب القرية، ثم يدخلون المنازل من جميع الثقوب والفتحات، ويسقطون عليهم من النوافذ والسقوف والجدران، ولم يكد يشع ضوء الصبح حتى قاموا بزيارة خاطفة إلى المقبرة، وهناك أسفوا

للحال السيئ الذي وصلت إليه، وقرأوا بعض السور والآيات كمهدئات عاجلة للأرواح المضطربة، معتقدين أن الموتى مذنبون يودون الفرار من حفر النيران التي أعدت لهم وسط الجحيم، لقد أخبرونا بما حدث لهم مع الموتى، ثم غادروا القرية للتو دون أن يفتحوا موضوع الغلال المحتجزة التي جاءوا من أجلها، بينما بقي الموظف صاحب السجل منتظراً لصديقه سعد المسفل، وجهزت له حجرة في الدار العتيق إلى جوار حجرتي، وطال انتظاره كما طال انتظار الأهالي، وتسلل الملل إلى نفوسهم، حتى نسي الجميع سبب انتظارهم، وانخرطوا في غوغاء الحياة والروتين السابق، وبعد شهر، وبينما كنت أهم بالخروج من الدار، سمعت حركة غريبة تصدر

من إحدى الحجرات، فذهبت أبحث عن مصدرها، وهناك انفتح باب، وخرج منه خيال رجل عارٍ منهك يرتعش من البرد، فساعدته على ارتداء ثيابه الرثة، ثم مضينا نحو العلية وهو متكئ على جسدي، وذاع الخبر، فأقبل الأهالي وازدحمت العلية، وكادت تحدث فوضى، ولكن حضور عمتي قبول أنزل الرهبة في نفوسنا، ولزمنا الصمت، وأخذنا نتأمل الرجل الذي ظل شهراً في ظلمة تامة، ولاحظنا من خلال اهتزاز بؤبؤي عينيه بأنه لا يبصر شيئاً مما حوله، ثم اكتشفنا أن جلد بطنه يكاد يلتصق بظهره بفعل الجوع، وأن فكيه متجمدان بحيث لم يستطع النطق، وطلب موظف الأوقاف من الأهالي المغادرة، ثم أخرج بعض العقاقير من مخلاته، وجعل يدلك

أوداج صديقه بزيوت لزجة حتى ارتخت، ثم صار يغذيه بسوائل، ماء وحليب وحساء خضار، وبعد ذلك طلا عينيه بزلال البيض، واستمرت العناية أسبوعاً كاملاً، حتى عاد الرجل إلى سابق عهده قبل دخوله حجرة الرماد، وحينئذٍ خرج إلى باحة القرية مترنحاً كأنما خرج من وعكة صحية، وأخبر الجميع بما أسفرت رحلته من نتائج، لقد وضع الأموات شروطاً قاسية وباهظة، "على أمين القرية أن يتخلى عن حقل البن لأنه جزءٌ من الأرض الموقوفة اغتصبه أحد أجداده القدامى" وثاني شرط هو "إخلاء المنازل الجاثمة فوق الأرض الموقوفة، وتنظيف المقبرة من الأوساخ والمخلفات"، والشرط الثالث الأخير هو "بناء سور يحيطا لمقبرة من جميع الجهات، ويكون منيعاً بحيث

يستعصى اقتحامه"، ولما سمع أمين القرية صويلح جوهد ذلك التقرير الحاسم، صاح باستياء:

-إنها مؤامرة لتجريدي من أخصب الحقول، لا.. لست مغفلاً كما تظنون..

وقالت عمتي قبول بنبرات حادة:

-إذا كان خروجي من الدار كفيلاً بعودة الهدوء إلى القرية، فإني أقبل بذلك..

قال موظف الأوقاف:

-أرى أن تتحول القرية إلى أسفل التل، ونحن سنساعدكم باستئجار جرّافة من أجل تسوية الأرض هناك..

-ولكنها غير صالحة للبناء، إنها تقع في مرمى المياه..

ونظر الموظف إلى عمتي قبول، وقال بشيء من التردد:

–وهل تفضلون البناء وسط الأراضي الخصبة؟

–سنبني في أرضنا مساكن صغيرة.. سأتكفل بأرض للأهالي.. نحن مجبرون على ذلك..

وبدا أن الوضع المعقد بدأ ينفرج، ولكن صويلح جوهد ما زال يرفض قطعاً التخلي عن الحقل المحاذي للمقبرة، والحقيقة أنني انزعجت رغماً عني، واكتشفت أن قربي من عمتي قبول ليس من قبيل النخوة، وكان من الصعب معرفة لماذا تثق بي دون الآخرين، ولكني أشبهها إلى حد كبير، أعاني ما تعانيه وأكثر، ويجعلنا الناس في خانة واحدة، وربما يحسون ناحيتنا بالشفقة القاتلة، وقد يظنون أننا نغبطهم على ما وهبهم الله من

الذرية، وكان هنالك من يحاولون إخفاء سرورهم بالأطفال لكيلا يجرحوننا،بل يحصون مشاكلهم ويذكرون أعباءهم، وكان هذا التصرف أشد ألماً من أن يصفني أحدهم بالشجرة غير المثمرة، ولا أدري كيف أستبد في نفسي الحنق من رغبة العجوز في توزيع بعض الأرض على فلاحيها، أهذا هو ما نسميه "الحسد" أو ما نطلق عليه "حب الذات"، حتى إنني في بعض الأيام أخال عمتي قبول تحتضر، ومن ثم تستدعيني لأتسلم أملاك العائلة، وحين أنتبه إلى كوني أستبق الأحداث على نحو دنيء، أشعر بالخجل وتبكيت الضمير، ثم أقاوم التفكير في ذلك عدة أيام. حتى جاء هذا اليوم الذي شعرت فيه بالحقد على الفلاحين الذين سينازعونني على ميراثي، وكرهت أن تقدم

العجوز على مثل هذه الخطوة، لأنها ستقوم بتوزيع جزء من أملاكنا التي ورثناها عن أجدادنا، وليس ما يخصها فقط، وهكذا ذهب الأهالي إلى منازلهم مطمئنين وتركوني حائراً مرتبكاً.. وفي الليالي الكئيبة التالية، كنت أقضي بعض الوقت في المساء أراقب النجوم، وأتأمل الدروب المجاورة والتحركات السريعة للخفافيش والبومات التي تصيح من الأشجار والشعاب المهجورة المحيطة بالمقبرة، وأشعر بالأمان والإثارة، حتى الموتى أنفسهم لم يعودوا يحدثون أي جلبة، وأقول لنفسي ساخراً: "أليس للظلمة في هذه القرية نعم جزيلة، وأقل الفوائد أنني أستطيع الوقوف على سطح الدار العتيق دون أن يراني أحد"..

وقد أشعر بتعاسة لا متناهية خلال هذه المغامرة، حتى يساورني الظن بأني أكثر الناس استحقاقاً للرثاء، وعندما لقيت عمتي قبول في اليوم التالي، قلت بعد تردد طويل:

-التخلي عن الأرض بمثابة الموت، لن تجدي بعد ذلك من ينظر إلى وجهك..

-أنت صاحب فكرة هجر المنازل، أليس كذلك؟ ..

-نعم، هذا صحيح...

-اطمئن،فما زال هناك الكثير.. سيؤول إليك كل شيء، ولن تخرج الحقول عن ملكية العائلة على الأقل لبعض الوقت.

عرفت أنها تلمح إلى قرب انقطاع شجرة العائلة.. ولم أجد ما أجيبها به..

الفصل الخامس

كانت عمتي قبول تعيش بهدوء تام، أما الآن فقد أمست تصول وتجول في القرية، وأصبح لديها شيء تشغل نفسها به، حتى الأيام باتت تمر تباعاً، والأوقات تمضي، وفي مخيلتها أهداف تسعى إلى تحقيقها، لم يكن الأهالي في القرية يلتفتون إليها أو يعيرونها انتباهاً كما هو الحال اليوم، آه..آه.. ما أجمل أن نكون في موقع يرانا فيه الجميع! ولكن ما إن غادر سعد المسفِّل، حتى بقيت نفس الوجوه هي المتسيدة على الأنظار، لم يعد هناك بصيص أمل في مناظر جديدة، حتى لو كانت خادعة، وهكذا بدتا لأشياء أشد ترويعاً

ومبعثاً للظنون، وهذا جعلنا نتوجس قلقاً من كل ما يدور حولنا، وأمسى الخوف يزين لنا الأشياء على غير حقيقتها، فإذا رأينا عقب سيجارة محترقاً يرمى في الهواء، نظنه شهاباً مرسلاً من السماء، وإذا أحسسنا بأقل اهتزاز في منازلنا اعتقدنا أنه زلزال، وإن تعثر أحدنا أو سقط أرضاً ظن ذلك من تأثير الموتى، ويبدو أن المصائب تحدث عندما يتوقع الناس حدوثها ويخافونها، فازداد وقوع الأخطاء، وانتشر الذعر بدون أسباب واضحة، ورأت عمتي قبول مراراً أطياف زوجها وأقاربها الموتى يجولون في الدار، وطالما أفيق وأجدها تناجي طيفاً خفياً، طالبة منه أن يقترب منها لكي تتضح صورته أكثر، وازدادت الأطياف التي تناجيها لتطلب مغفرتها، صفية والمسعفون

الذين أرغمتهم على ركوب تلك السيارة المعطلة، الأموات الذين يتأذون من مخلفات الدار، بقرتها الحمراء الحالبة التي ذبحت إكراماً للموتى في زمن جدي مبخوت، لقد ظلت صامتة طوال المدة السابقة، ولم تتحرك ضد ما يحدث في القرية إلا في وقت متأخر، واليوم تخشى أن الوقت قد نفد، وأن الأخطاء لم تعد قابلة للإصلاح، كانت تخبرني عن كل تلك التهويمات في المساء، حين نجد فائضاً من الوقت لنتحدث قبل النوم.. ومع مرور الأيام ازدادت نذر الشؤم، وحدثت كثير من الآفات، معظمها ليست من صنع الإنسان، فقد سقط وابل من البرد أتلف المحاصيل وحطم زجاج النوافذ، وتراكم فوق سطوح المنازل عدة أيام، كما عصفت رياح شهر شباط محطمة غصون الشجر،

وبعد هدوء الريح غمرت الجو غمامة غبار آتية من الربع الخالي حجبت الرؤية ثلاثة أيام متوالية، ثم أتت أخبار الجراد القادم من أفريقيا، ولكن هذه الحشرات لم تجد غير العشب وأوراق أشجار البن وأشجار الطلح والقرض، فأكلتها والتهمت اللحى والفروع الصغيرة، وقضت على كل نبات أخضر، حتى باتت الشعاب جرداء خالية من أي غطاء نباتي، وهكذا أحاطت القرية منحدرات ميتة غبراء، وخيم عليها جو مخيف قاسٍ لا يسر، وفي ظل استمرار هذه الأوضاع السيئة، جعل الأهالي يتحركون وعيونهم مفتوحة وقلوبهم تدق بشدة، وآذانهم ترهف السمع، وطالت عليهم الأيام والليالي ولم يجدوا شيئاً جديداً، وأخيراً طافت عمتي قبول بالمباخر في عرض وطول المقبرة

نافثة على أرواح الموتى الروائح الزكية، كأنما تستدر عطفهم أو تودعهم، وتعهدت أمام قبورهم أن تستجيب لجميع مطالبهم، وها هي تطلب من الأهالي إخلاء منازلهم، راجية منهم تقبل هذه اللحظة القاسية من حياتهم بشجاعة، وذهبت معهم تجر جسدها المرهق الخائر، ثم جعلت تتأملهم، وهم يهدمون منازلهم بأيديهم، وينقلون أحجارها نحو الأرض الجديدة، وكان عليهم أن يبنوا نفس النماذج الأولى حتى لا يحسوا بفقدان جزء كبير من تاريخهم، ولكن أذهانهم لم تكن صافية، بل كانت مشتتة في خضم قرار متسرع، وهذا جعلهم يبنون مساكن صغيرة بدائية في أرض لم يحدد ثمنها، ولم يأخذوا فيها أي عقد أو وثيقة تمليك، وكلما يتعلق فيها معلوم ومحدد

باتفاق شفهي خالٍ من التعقيدات ، ولكن عمتي قبول جعلتني فيما بعد أكتب صيغة مبايعة أملتها عليّ، ثم عرضتها على الأهالي، فوافقوا عليها للتو لأن المبالغ ستسدد إليها على أقساط معلومة القيمة والزمن، وتمكنت من تأمين حجرة صغيرة لي في دارها الجديد، وذلك على اعتبار أننا عائلة واحدة، وكانت دارنا الوحيدة التي بنيت بالحجارة والطين، وإن بدت أصغر قليلاً من الدار العتيق، ولكنها مقارنة بمنازل الأهالي تبدو عملاقة مهيبة، وهكذا نشأت قرية واختفت قرية، وتمت نظيف أطلال المنازل المدمرة، وأزيلت كل المخلفات عن الأرض الموقوفة، وبدا شكل المكان غريباً بعد أن كان عامراً بالمنازل، وتمت عملية نصب شواهد حجرية جديدة للقبور المحطمة،

فبدا المنظر مؤثراً مهيباً، ورغم ذلك بقيت خمسة منازل جاثمة في مكانها الأول، وهي لأشخاص يتبعون صويلح جوهد، وعلى رأسهم الفقيه عبدالقادر، فأخذت عمتي قبول تراوغهم وتساومهم كثيراً من أجل تركها، ثم ما لبثت أن أهملتهم وتفرغت لشؤونها الخاصة بعد أن يئست من استجابتهم، فبدأت تمارس سلطتها في القرية الجديدة التي أطلق عليها اسم "الهجرة" دلالة على هجر الأهالي لمساكنهم، وكان عليها أن تتعلم المهام التي ستزاولها، وقد سجلت نفسها في المديرية أميناً للقرية الجديدة، لكنها وقفت حائرة أمام مشكلة عويصة، وهي أن منصب " أمين القرية" يقتضي شخصاً يستطيع القراءة والكتابة، وجعل صويلح جوهد يبالغ في التقليل من شأنها،

بل أخذ ينبئ المسئولين في المديرية بأنها أمية ولا تفقه شيئاً عن كيفية صياغة وثائق الملكية وعقدي الزواج والطلاق، فأشارت عمتي قبول إلي وهي تقول لرئيس المجلس المحلي بنبرات حازمة:

–إن هذا هو ابن شقيقي ويرافقني كظلي، وهو كاتبي وقارئ وثائقي، وقد تخ رج في المعلامة..

–ولكنك امرأة.. وستكون سابقة أن تصبحي أميناً للقرية.. وربما هذا سيثير حفيظة الرجال و...

–انظر إلي جيداً.. ماذا يعني أن أكون امرأة، إذا كان المقصود هو أن أتولى شؤون القرية الوليدة التي بنيتها على أرضي.. ألم تتول والدتك أمر تربيتك في يوم ما؟ قالتها بثقة امرأة كبيرة.

فأمعن النظر في شكلها المتحفز الوقور ثم وقَّع على الورقة، في حين عجز صويلح جوهد أن يثبت أن القرية الجديدة تقع في حدود سلطاته، وخابت كل مساعيه، ورأى أن أصدقاءه وحلفاءه في المديرية تخلوا عنه دون أسباب واضحة، وشعرنا بأنه أضحى كتمثال لقيل حميري عتيق داخل فاترينة متحف متواضع، ولم يعد منه سوى ذكرى غابرة تبعث على الحسرة، لقد أصبحت سلطته مقتصرة على خمسة منازل وقليل من الأعوان، ومع بداية العام، جن جنونه حين وصل إليه إخطار رسمي من المجلس المحلي بأن مهامه كأمين للقرية قد انتهت، وظل بضع ليالٍ دائخاً مكتئباً لهول الخبر، وفي قريتنا يحصل المصاب على التعاطف، ويحصل على مقدار مماثل من

التشفي والتهكم، ويتحدث النمامون عن عيوبه بحيث يسمع بها الجميع إلا هو، وقد سمعتهم يقولون:

–لقد كان يأخذ من الأرامل إتاوات لقاء تسجيلهن في الضمان الاجتماعي، وصار يدعي ملكيته للأمتار القليلة التي تحيط منازل الأهالي، وهناك من يزعم أنه ابتاع مشارف منزله من صويلح للمرة الثالثة، وكان ينظر إلى ما في أيدي أصهاره وبناته.. وكان يفعل كذا.. وكان ...

ويذكرون أيضاً أم الخطايا وهي توسعه المشين في المقبرة، وتهشيمه رفات الأموات بالجرافة، واليوم يحاول أتباعه أن يهيمنوا على عين الماء الوحيد الذي يغذي الأهالي، فحطموا الأنابيب البلاستيكية المؤدية إلى القرية في وضح النهار،

وأمست خزاناتنا فارغة، وتحت ضغط الحاجة ذهبنا نحو مورد الماء، واشتبكنا وأتباع صويلح، وسقط جرحى من الطرفين، ولكننا في الأخير طردناهم بكثرتنا، وعيّنَّا موزعاً جديداً استطاع أن يملأ خزانات الجميع، وكادت القرية الوليدة تكتمل في بنيتها، ويوماً بعد يوم يتنبه الأهالي إلى مرفق ما، تدفعهم إلى ذلك الحاجة والمنفعة، فنشأ المسجد والبركة، ورُصَّ الجِرن الذي تعالج فيه المحاصيل، وأقيمت مصدَّات جديدة للمياه، وظهرت دكاكين صغيرة إلى جانب دكان الحاج محمد، وأخيراً أوقف حقل فسيح من أجل استقبال موتانا، ولا ندري من سيقع عليه الحظ لينال المرتبة الأولى في المقبرة الجديدة، وبدت عمتي قبول مزدهية وفخورة بما تحقق في غضون

ثلاثة شهور فقط، وإن كان ذلك قد أكل احتياط غلالنا وكل مدخراتنا ونفائسنا، بل قام البعض ببيع مواشيه أو قلائد زوجته، والبعض الآخر رهن مقتنيات أثيرة لقاء قرض آجل، وتكلل العناء باحتفال مهيب حضره الأصهار والأصدقاء وذوو القربى من الأرياف المجاورة، واستقبل الساكنون الجدد مساكنهم بذبيحة تطرد دماؤها الشر، ويؤكل لحمها في مأدبة يؤمّها الضيوف والمضيفون، وكانت تلك خاتمة سعيدة للتباهي بما أنجز، وثمرة جهد وكفاح مريرين..

ومنذ ميلاد هذه القرية، بدأ تاريخ صويلح جوهد يعلن عن بدء نهايته، فتلاشت عن ملامحه تلك العزة والغطرسة والهالة اللامعة، حتى إنه بدا شخصاً عادياً أكثر من اللازم، ومتشرباً بالضعة

والبله حتى صميم النخاع، لم يعد هناك من يتسابقون ليحظوا بشرف الحديث إليه، أو مرافقته حين يذهب إلى أي مكان، وبين ليلة وضحاها غارت كل امتيازاته وكأنما أفاق من حلم سعيد، أو لم يعش تلك الفترة من عمره قط، بينما انتقلت الوجاهة إلى عمتي قبول، التي اتبعت–في البداية–أسلوب حياتها القديم الخالي من البهرجة، فخرجت إلى الأهالي مرتدية حذاءها العسكري وشالها الرجالي وقميصها القديم المتآكل، وحملت عكازها المستخرج من خشب شجر الأثل، ورفضت أي شيء خارج عن المألوف من سلوك الأهالي، وقد رأت بالمصادفة أمين القرية السابق، والحال السيئ الذي وصل إليه، حيث ذابت الدهون من جسده وصار مزرياً واهناً

كما لو أصيب بداء عضال، وتذكرت كيف كان هذا الرجل في الأمس القريب، وكيف أضحى اليوم، وعند هذه اللحظة، كرهت روحها، وتمنت ألا تقع في هذا الفخ اللعين الذي رأت نفسها قادمة نحوه، وجعلت تنظم شئون القرية الوليدة مستغلة خبرتها المتواضعة، ولم نشعر متى وكيف انقلبت طباعها، بحيث أصبحت فجأة ترتدي الجديد، وتمشي متبخترة منتشية وكأنها في ذروة المراهقة، لكنها كانت من أعماقها بدائية، تخشى من كل شيء غير مألوف، حتى باتت ترفض فكرة حرث الأرض بواسطة آلة، ومافتئت تقول إن البركة مقترنة بوقع أظلاف الثيران في الحقل، ولم تقتنع بحجتي في أن الموتى–على افتراض أنهم يملكون رؤية متقدمة عن الحياة–يسعدهم أن يروا حالنا

يتحسن ومحاصيلنا تزداد، لكنها كانت تتقدم في شيخوختها، ولم تتغير مواقفها بشأن كثير من الأشياء، حتى انتهى بها الحال إلى الادعاء بأن أوجاع الموتى على وشك الزوال، وظلت تبني بلسانها سياجاً من الثرثرة حول المقبرة وتحدثنا عن الغيبيات والإيمان بوجود الله، وصارت تنشر الوعود الكبيرة بسخاء، فبدت كمن يبيع السمك الذي مازال في قعر البحر، وما زالت تحاول أن تذر الرماد في عيوننا دون كلل، فباتت تكذب لكي تقنعنا بانتهاء المتاعب وبالاسترخاء في قريتنا دون أن نحرك ساكناً، وقلت لها في يوم قريب:

–مازالت هناك مطالب للموتى لم تتحقق..

فرفعت عكازها في الهواء لتضربني، ثم تصنعت المزاح وعدم الفهم، فقمت بتذكيرهم بما

يريده الموتى، فالسياج الذي يجب أن يحيط المقبرة لم ينشأ بعد، ومافتئ أتباع الأمين السابق يجوسون ومواشيهم فوق القبور، وما زال حقل البن المغتصب تحت ملكية صويلح جوهد، وهنالك المنازل الخمسة التي ترزح بموضعها الأول على الأرض الموقوفة.. وكنت أشعر أنها باتت تكرهني بسبب تكراري مثل هذا الكلام.. وأمسيت أثرثر حتى صرخت في وجهي ذات يوم قائلة:

–لا تظل تنعق مثل الغراب، كف عن التشاؤم يا هذا..

فوجئت بمثل هذا الجحود، وتذكرت أن صويلح جوهد نعتني قبل ذلك بالبوم، وها هو اليوم يبدي مقاومة شديدة لأي مساعٍ للتقارب مع الأمين الجديد والأهالي، وانطلق هو وأتباعه

يتحدثون عن السبل التي تجعلهم مؤثرين في القرية، ولكن عن أي قرية يتحدثون، لقد اجتثت القرية التي عمل أميناً فيها، في حين ولدت قرية أخرى مختلفة في مكان آخر، وهو لا يستطيع أن يفرض نفسه على الأهالي، لاسيما وقد أضحت قريتنا الوليدة كياناً مستقلاً بذاته ولها اسم مختلف، ولكنه لم يستسلم للهدوء والدعة.. حيث جرب جميع أنواع الأذى والحيل المتخيلة، واختلق معظم المتاعب التي لا يمكن أن تتصورها أذهانكم، مثل حيلة التنكر بأزياء النساء، وجذب فحول الأهالي إلى مواضع خالية، وفجأة يظهر الزوج المخدوع، وتنتهي هذه الورطة بالقسم على أن يعود الرجل إلى تأييد الأمين السابق صويلح جوهد، وانزلق شخصان في الفخ، ثم جوبهت هذه

الحيلة بالحذر الشديد من النساء المنقبات الغريبات، حتى أن الأهالي باتوا يترددون قليلاً حين تدعوهم نساؤهم الحقيقيات للمجيء، وأثبت صويلح جوهد موهبته في التنكر، فجاء إلى القرية الوليدة، وهو على هيئة قارئ كف وعرَّاف، وأي شخص قرأ له كفه كان يقول له إن خطوط كفه تقول إنه سلك الطريق الخطأ، ولكي تستقيم حياته يتحتم ألا يفني عمره تحت ولاية امرأة، وقد استغربنا من هذه اللكنة السلفية التي لا تتوفر عادة لدى قرَّاء الكف والعرَّافين، ويوم أتت لجنة صندوق التنمية الاجتماعية من أجل تزويد المنطقة بحواجز مائية، أرهبها وجعلها تعود أدراجها، وأخذ ينشر الذعر والشائعات حول وجود عصابات خطيرة في القرية الوليدة، وفي آخر المطاف بعث

إلى الأهالي مغلفات في داخلها أفاعي وعقارب، ونجت عمتي قبول من لدغة عقرب أصابت ذراعها، وكاد أن يموت أحد الأهالي بسم ثعبان صغير، حتى أصبحت الهدايا والرسائل من الأشياء التي نرفض استلامها، وهكذا ظل يتربص بالأهالي حتى أوقفه المرض، وسمع أحدهم زوجته نعمة تخاطبه بروية:

"أعقل يا رجل، ها قد ملأ لشيب رأسك وتجاوزت الستين من العمر، ولم يعد هناك شيء في حياتك يستحق أن تعاني من أجله.. لن تنفعك هذه الحثالة من الأذيال، إنك تبدد مال الأولاد عليهم حتى عندما تكون مفلساً لن تجد من يلقي إلى وجهك نظرة"..

وذات مرة غاب صويلح جوهد بصورة مفاجئة، ولم يدرك أحد إلى أي نذهب، وسرت شائعة بأنه مريض تنتابه حالة غريبة من الهوس..

الفصل السادس

أصبح عماد في سن الشباب، أسمر ونحيل ومتمرد، لكنه في الوقت عينه ودود وشهم، ولعل صداقتنا نشأت منذ اليوم الذي أعلن فيه عن معارضته للأفعال الخسيسة التي يمارسها والده، حيث كان يرجو الخير للجميع، ولديه ذلك الاعتداد بانتمائه إلى الأهالي، وكنت معه أشعر كأني لم أتجاوز العشرين من العمر، ومن ثم زالت عني تلك الكآبة التي أعرفها وتعرفني، وأصبحت أشعر بأني حر مثل طائر يحلق في السماء، تحررت من كآبة مهنتي المشئومة التي رافقتني منذ الصغر، وصرت أقتلع جلدي القديم مثل

أفعى، فبدأت أهتم بمظهري وأمزح مع الكبار والصغار، وغدوت بمنتهى التصابي والزهو، حتى اندهش الأهالي. وعجبوا من الرجل الأربعيني الأعزب، الذي يتصرف على هذا النحو غير اللائق، وحاولوا أن يقفوا في طريقي، ولكنهم عجزوا عن مجابهة حياتي الجديدة، وخاطبني حسن الطويل متعجباً:

–هل أنت ناصر وصي المقبرة؟

–أنا ناصر وحسب.. أجبت بحدة..

ولم يسألني بعد ذلك أحد من الأهالي، لأنهم انشغلوا كثيراً بأنفسهم، وقد انتهز عماد انشغالهم وغياب والده وانضم إلي صديقا،غير عابئاً بفارق السن بيننا؟ حتى بات يخبرني عن كل تحركات والده الأخيرة، أخبرني بأنه في مكان ما للعلاج،

وأكد لي أني الوحيد الذي يعرف هذا السر، ثم جعل يزودني بأخباره منذ أن ذهب إلى أن عاد..

لقد ذهب إلى فلكي "بيت الفقيه" من أجل معرفة مستقبله، ويستخدم هذا الفلكي للتنبؤ وسيلة غريبة لا يستخدمها معظم المتنبئين، حيث يستعمل منظاراً ليلياً في مطالعة النجوم، ومن ثم يراقب الأفلاك ويحسب أبعادها، ثم يستخرج موقع النجم الذي يناسب كل شخص يأتي إليه، وبواسطة خطوط وإشارات معينة في النجوم يكتشف الحظوظ والمواهب والمهارات وكثير من المشاكل والأسرار، ولكل إنسان سؤال خاص هو الذي يحدد نوع التصرف المتبع، هذا ما فهمته من وصف عماد، إضافة إلى أن والده كان يشكو من ألم شديد في الرأس، وشوشرة تشبه اشتباك

حديث محطتين إذاعيتين، وحين يصفو الجو في آخر الليل كان يسمع حديثاً بعدة لغات، وأوشك الفلكي أن يضحك لغرابة الحالة، ولكنه–وهو الحازم الوقور–أمسك زمام أعصابه، ليسأله السؤال الخاص قائلاً بدهشة:

–ما هو آخر عمل سيء اقترفته قبل مجيئك إلى هنا؟

فأجاب بانكسار:

–إنه عمل غريب لن يسرك سماعه، لقد بعثت للخصوم مغلفات تختفي داخلها الأفاعي والعقارب..

صعد فلكي "بيت الفقيه" إلى سطح منزله المقضض وهو يقلب كفيه بعجب، وجعل يتصفح بالمنظار النجوم ليقرأ طالع هذا الرجل الغريب

الحال، واستمرت العملية مدة ساعتين من الوقت وهو زمن كبير، وبرر الفلكي طول مكوثه أمام المنظار بعدم وضوح الرؤية في تلك الليلة، وكذلك بسبب التقلبات القاسية التي أصابت حياة مريضه، وفي نهاية المطاف وقف أمامهم مجهداً وكأنه خرج من معركة، وقال يخاطبه:

–يا للغرابة، لم أشهد النجوم مرتبكة ومتشابكة، وحولها هالة سوداء من الغمام مثلما هي عليه اليوم، وهذا لا يحدث إلا نادراً جداً ..

–ماذا يعني ذلك؟ أرجوك لا تخفي شيئاً حول حياتي..

فأخذ الفلكي يوضح طالعه الذي تفصح عنه النجوم، وبقي هذا الجزء مجهولاً، إذلم يخبر أحداً عن الجزء الأخير منالنبوءة، ولكن يبدو أنه

لا يسر، إذ مضى حانقاً وهو يسب ويشتم من أشار عليه بالقدوم إلى هذا الفلكي المحبط، وبدا كأنما لم يثق بقوله، معتبراً أن ما يقوم به هو عبث وضحك على الذقون، وراح يتنهد حسرة على المال الذي أهدره في تلك الرحلة، وحاول ألا يعود بلا مكسب من زيارته، فاستشار طبيب أعصاب في مدينة الحديدة، فأجرى له كثيراً من الفحوص وعرض جسده على أشعة الليزر، وثقب إليته بالحقن والإبر الصينية، ثم نصحه بلطف أن يتجاهل هموم الحياة ويعيش في حال من الانبساط، وفي النهاية تسلم من الصيدلي كيساً كبيراً ممتلئاً بالأدوية، وغادر المدينة في تلك اللحظة وهو في غاية التفاؤل، وذلك لأن الطبيب لم يعطه انطباعاً سيئاً عن حاله، وقد خففت

الأدوية من حدة الصداع، وانطفأت أصوات المحطتين الإذاعيتين في رأسه، ولكنه حينما عاد انجر إلى القلق والهياج، ومضى يجاري أتباعه في إشاعة أجواء التوتر والمكايدة، وتأثرت القرية الوليدة بهذه التصرفات، ونتج عنها انقطاع الماء عن خزانات الأهالي، ونالتا لمقبرة جزءاً من عنف الجُناة، فتناثرت شواهد القبور والرفات، وتحتم علي أن أذهب يرافقني عدد من الأهالي وأكياس النايلون، لأننا أُبلغنا عن حدوث دمار كبير في وقت متأخر من الصباح، وعادت إلى الأذهان فكرة السياج، وراح البعض يحذرنا غاضباً من عودة الأحلام الرهيبة، حيث لم يعد الأهالي يطيقون القلق والألم النفسيين اللذين يلازمانهم كل دقيقة، لأنهم يخسرون مالاً كلما دمرت إحدى المرافق

لاضطرارهم إلى إعادتها كما كانت، ومن ثم ينحدرون نحو العوز الشديد، ويقل ما بحوزتهم من مخزون، وأما الجزء الآخر من عنف أولئك الأشقياء، فقد وقع على القرية الوليدة على شكل زخات من الرصاص، ووقفت عمتي قبول عاجزة عن التفكير تحت هذا الظرف، وبعثت رسائل لاهثة إلى المديرية تطلب نجدتهم لإجبار صويلح جوهد على تركنا بسلام، ولكن هؤلاء كانت لهم مشاكلهم الخاصة، وقد وثقوا في حكمة العجوز على قهر هذه الصعوبات، وأكدوا لها إنها مسألة وقت حتى تفتر همة الأمين السابق، فجعلت تصيح بيأس وقنوط: "المُكسِّر غَلَبْ ألف مدَّار"[٨].

[٨] يعني ذلك بأن الشخص الذي يكسر الفخار سينتصر على ألف صانع فخار.

وصارت تمشي كالمجنونة حاسرة الرأس شاهرة عكازها في الهواء استعداداً للمواجهة، يحف حولها الأهالي المعدمون، وقد أضحوا مشمري السواعد، متأهبين لاجتياح المنازل الخمسة في أقرب لحظة، ولكن الصداع كان أسرع من الجميع، حيث عاد إلى رأس صويلح جوهد، وانبثقت من جديد المحطتان الإذاعيتان في رأسه، وأخذت أوضاعه تسوء أكثر، ولكي يستعيد مجده الآفل عاد يبدد ما تبقى من أمواله، لكن بوادر فقره ظهرت أمام الملأ، وبات أتباعه يشتكون من نقص المؤن وخراطيش الأسلحة، وأمست الوجبات التي يتناولونها لا تسد جوعهم، وحل بهما لضنك والسأم، وشرعت المضايقات والتهم تصيبهم من ربة "الدار نعمة " وأولادها، وفي آخر الشهر لم

يتلقوا فلساً واحداً من أجورهم، ورأوا راعي نعمتهم يسقط متأثراً بالانهيار العصبي، فهربوا حاملين معهم الأسلحة والخراطيش المتبقية، وابتلعهم ليل شديد السواد إلى غير رجعة، وهكذا، ساد الهدوء بعد رحيلهم، وحل الاضطراب في منزل صويلح جوهد، وألم به الصراخ والضجيج، وجعل الأخير يتلوى ويتخبط هنا وهناك، وأهله يتحركون حوله بقلق، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، وحين حاول أصهاره أن يأخذوه إلى المشفى عاد إلى رشده، وكأنما لم يصبه شيء، ولكن بين فينة وأخرى تتردى صحته ويذوي جسده بشكل مباغت، ويحدث هذا من دون إنذار مسبق أو مقدمات، وفي يوم سبت، وحينما أتاه رد من البنك اليمني للإنشاء والتعمير بمقدار رصيده

الجاري، وقع منهاراً مخبولاً، ولم يتضوع بعد ذلك النبأ رائحة العافية أبداً، حيث ذهب عقله بذوبان ملايين الريالات من حسابه، ووجد أهله إلى جانبه رسالة البنك الرسمية، ولاحظوا المبلغ الزهيد المتبقي، ثلاثين ألف ريال لا غير من رصيد يساوي أربعين مليوناً وثلاثمائة ألف، وقد سحبها على شكل مبالغ كبيرة في الشهور الستة الأخيرة، وأنفقها على الأسلحة ومستحقات الأتباع والمؤن، وكان قد اقترض أموالاً من مِلاك ووجهاء في القرى المجاورة، ليس هذا فحسب، بل باع بعض حقوله لسداد بعض القروض، واكتشفت زوجته وأولاده ذلك سريعاً، إذ ليس من الممكن إخفاء أمر كهذا في ريف صغير، وكم كانت صدمتهم وهم يرون امرأة "أبو أكرم" تجتث بعض الشجيرات

الضارة، فثاروا وحاولوا منعها من التصرف في ما كان من أملاكهم حتى وقت قريب، ولكن المرأة أعلنت بأن الحقل صار مملوكاً للأمين الجديد قبول بنت مبخوت، فأسرعوا يزفون الخبر إلى أبيهم، فانهار معترفاً بأنه باع حسن الطويل ثلاثة من حقوله للإيفاء بالقروض التي على عاتقه، وها قد فوجئ بأن يكون حسن ليس سوى وسيط، ورغم تأثره الشديد وحزنه، إلا أنه لم يسلم من تعنيف عائلته، فصاح بصوت عميق حزين:

-اسكتوا أرجوكم، يكفيني ما أحس به من مهانة..

-في آخر عمرك تضحك على ذقنك عجوز، تأخذ منصبك ثم تحتال لأخذ حقولك لتعوض عن حقولها التي أقيمت عليها المساكن الجديدة ..

– .....

ولما رأت "نعمة" مقدار ألمه، كفّت عن لومه، وتكهنت من نظرات عينيه الكئيبتين أن قراراً متهوراً قد تشكل في ذهنه، وهي أكثر الناس معرفة بمقدار عناده وتهوره، ومما جعلها تشك في نوايا زوجها أيضاً هو ذلك اللطف الغريب الذي أخذ يعاملهم به في تلك الليلة، وكان من النادر أن يحيطهم بذراعيه حين يسافر، ولكنه في ذلك المساء احتضنهم واحداً واحداً، وقد حدثني عماد عن ذلك المساء الرهيب الذي أحس بجسد والده الدافئ وهو يحتضنه.. بينما حرصت أمه أن تبقى إلى جانب زوجها في حجرة نومه، وما إن ذهب إلى الحمام قبل موعد النوم حتى دست يدها تحت

وسادته، فعثرت على مسدسه مشحوناً برصاصة واحدة فقط، فأخذته بسرعة وأصابعها ترتجف هلعاً، وكأنها تمسك بأفعى، وسارت بخطى مرتبكة سريعة حتى ألقت به في ركن مظلمٍ داخل حجرة الخردة الملحقة بالدار، وكذلك تخلصت من بندقية أبو منظار التي تستخدم في الصيد، ونسميها في قريتنا "القنّاصة"، ثم استدعت الأولاد للنوم الجماعي في حجرة والدهم، وكأن الكوابيس ستعود لتهاجمهم مرة أخرى.. وأفاقوا في جزء من الليل على صوت والدهم المريع:

-لماذا تتدخلون في حياتي؟ كيف تجرؤون على محاصرتي؟ هل تظنون أنكم تستطيعون كبح أقداري أو منعي عن تقرير مصيري بنفسي؟ أنتم مخطئون حين تظنون أنكم ستنتصرون على

مشيئتي.. لقد انتهيت منذ زمن طويل، ولن أسمح لأي كائن أن يبقيني حياً لكي أتعذب..

وأراد النهوض فتعلقت زوجته بجسده وهي تقول مجهشة:

–لن تفعل ذلك، لأن لنا فيك نصيباً.. أنت لا تملك نفسك، أرجوك، لا تتهرب من واجباتك، ليس هناك ما يستحق أن تعاقب نفسك وتعاقبنا عليه..

ومنذ تلك الساعة، ولمزيد من الحرص على حياته، أبعدت عن طريق يده المدى وعلب الدواء والموسى والدبابيس الحادة والحبال، وكل شيء اعتقدت أنه مميت، حتى أنها فكرت في أن تهدم المنزل لتزيل الطوابق العليا التي يمكنه القفز من

أعلاها لو التفت إلى ذلك، ثم نزلت إلى الجيران في البيوت الخمسة، طالبة منهم أن يساعدوا زوجها على تجاوز هذه الحال التي يمر بها، فقابلتها عزيزة زوجة الفقيه عبدالقادر، وقالت لها بحكمة اليائس:

–أنت تسلكين السبيل الخطأ، وسوف يدفعه هذا إلى التمادي، هلا أعدتِ الأشياء إلى مواضعها لنرى ما سيفعل، وليشعر أنك سترتاحين عقب موته، إن الرجال يحبون أنفسهم كثيراً.

وسألتها نعمة:

–والفقيه عبدالقادر ماذا عنه؟

أجابت عزيزة بضجر:

–كما ترين أغادر إلى بيت والدي، ويستردني، وكلما أردت أن أتركه يتشبث أكثر.. يلاحقني مثل ظلي، وهذا هو حاله.. ليته ينوي أن يقتل نفسه، كنت سأقدم له المسدس مشحوناً بيدي هاتين..

وعادت نعمة محتدة، وألقت الخنجر بين يدي زوجها صويلح جوهد وهي تقول:

–إن شئت أن تموت لن أظل حجر عثرة في طريقك.. فقد أرتاح من العناء الذي أناله منك..

فأخذ الخنجر بانفعال،وصوبه نحو وريده، وأغمض عينيه قليلاً، ثم فتحهما ونحَّى الخنجر جانباً وأجاب بكآبة:

–لقد فات الأوان، لن أستطيع الآن.. أود فعل ذلك بمحض إرادتي ..

ثم سقط في نوبة شرود شديدة، وبعد ذلك اليوم ترك لشأنه، وشوهد وهو يمشي حافي القدمين، منكوش الرأس مهلهل الشكل،رافعاً عصا طويلة من شجر (اليراع) في الهواء، ولم يستطع أحد أن يتحمل مسؤولية رعايته في ظل هذه الحال اليائسة، فظل يهيم على وجهه في الدروب بأسمال بالية، وأصبح رفيق الكلاب والوطاويط والموتى، يقضي معظم أيامه ولياليه داخل المقبرة، قرب حقل البن الذي كان يملكه من قبل، وما أشد دهشتي وأنا أرى عماد يفر من طريقي وكأني وباء معدٍ! وفي آخر النهار كانت والدته نعمة في دارنا متخذة وضعية الاستعداد لفعل شيء ما، وأقبلت عمتي قبول تزحف ببطء كحيوان الكسلان، موحية بعدم تعجلها ولهفتها،وسرعان

ما استدعتني من أجل أن أكتب أحد العقود، وفوجئت حين أملت عليّ تلك العبارات القاسية: "اشترت الحُرة قبول بنت مبخوت حقل كذا وكذا وكذا.. والبالغة ألف "حبل" عشاري بالمقياس المحلي بثمن يدفع نقداً إلى يد زوجته الحُرّة نعمة بنت علي سعيد لتعيل أولادها بعد أن فقد زوجها عقله، على أن تظل الحقول تحت إشرافهم ويعملوا فيها فلاحين لدى الحُرة قبول بنت مبخوت حتى تطلبها..." وعند هذه الكلمة تجمدت أصابعي فوق الورق الخشن وتوقفت عن إتمام العقد، وهنا عرفت سر فرار عماد،الذي بدأ يزدري نفسه ويؤكد بداية انحدارهم إلى قعر عميق من الفقر والانحطاط، وصاحت عمتي قبول:

-لماذا توقفت أيها الأبله؟

فانسللت من أمام أنظارهم المندهشة إلى الخارج دون أن أجيب، ولم أعلم ما حدث في غيابي، ولكني خمنت أن عمتي قبول سوف تستدعي شخصاً آخر ليكتب العقد، ومشيت طويلاً بدون هدف، وأنا أفكر في حال عماد، ثم ذهبت إليه وعلمت أنهم يحاولون أن يضعوا حداً لمعاناة والده، بعرضه على الأطباء النفسيين المتواجدين في المدن، وذلك بعد أن عجز الطب الشعبي والمشعوذون عن شفائه، ولذا كانوا بحاجة إلى مالٍ جم، وحين عدت اعتزمت على فعل شيء شرير، وهو التجسس على صندوق عمتي قبول لأرى الوثيقة، وبفعل خبرتي السابقة ككاتب للعقود عرفت الوقت المناسب للبحث، وهو حين تذهب العجوز في نهار يوم الجمعة لتجتمع بالأهالي في

باحة القرية القديمة، وبعد بحث طويل، وجدت المفتاح مندساً داخل كوة في الجدار مسدودة بحجر للتمويه والحيطة، وقد كان صندوقها المكين من خشب الصندل القوي، وقفله من تلك الأقفال القديمة التي لا تفتح بسهولة، حتى مع وجود المفتاح الغليظ، وذلك لأنه لم يعد يستخدم في أيامنا، وهي الوحيدة التي تتمكن من إدخاله في ثقب الصندوق وتحركه بمهل حتى يفتح، ولا أحد في القرية يمكن أن يدَّعي معرفة ما بداخل الصندوق، وكان إذا فتح تنتشر في الأرجاء روائح ممتزجة حادة، رائحة حناء عدني، بخور حضرمي، ريحان صبري، وعبق لا يخطئه الأنف لشيخوخة معتقة، وفي هذا اليوم اقتربت من الصندوق تقاطعني دقات قلبي القوية،وكان أكثر ما

خشيته هو أن تفضحني هذه الروائح، ومع ذلك أدرت المفتاح العتيق ببطء في الثقب عدة مرات، حتى سمعت طقطقة الخشب وهو ينفتح، فأسرعت أرفع الغطاء الثقيل البني اللون، وألقيت نظرة سريعة على محتوياته، ووقعت عيناي على رزمة الوثائق– وثائق أملاكنا – في الركن الداخلي، فتناولت أعلى وثيقة، وكانت هي الوثيقة المطلوبة، وفوجئت أن جميع حقول صويلح جوهد قد بيعت،بمبلغ أقل من ثمنها الحقيقي، وظهر صندوق آخر متوسط الحجم، سرعان ما رفعت غطاءه، وذهلت حين رأيت رزماً متراصة من النقود الورقية ذات الفئة الكبيرة، وجنيهات ذهبية كثيرة ومصوغات فضية، وفي علبة عتيقة مسكوكات نقدية من عهود غابرة،واستطعت أن

أقرأ على وجه إحدى القطع المعدنية " الإمام المتوكل على الله يحيى حميدالدين"، وفي أحد أركان الصندوق سلة صغيرة فيها مكحلة قديمة وعلب بخور وكيس حناء وعلب أخرى لا أدرك ما تحويه، وسرعان ما أعدت بحذر كل شيء إلى مكانه الصحيح، ثم خرجت دائخاً لهول ما رأيت من ثروة، وأتساءل في سريرتي عن الوقت الذي نحتاجه لنجمع نفس هذا المقدار من المال، وهنا تكهنت أن هذه المسكوكات والمصوغات هي ميراث العائلة منذ زمن بعيد، ومن ثم فإن لي نصيباً كبيراً منها، وأعجب كيف لا أكترث بالميراث، بينما أظل تحت وصاية عمتي قبول كقاصر، وطالما تقول لي على الدوام: "اصبر يا ابن أخي، باتت أيامي معدودة" لكنها مع مرور الأيام تزداد عتواً

ونفوراً، كان قلبي ينتفض بشدة في صدري، وأنفاسي تصعد وتهبط بانفعال واضح. وأحياناً ألوم نفسي على هذا الهلع، وأخشى أن أكون قد تطبعت بالقسوة بسبب عيشي في المقبرة، ومن ثم أقرر ألا أتمنى لأي إنسان أي مكروه.. إلا أن شكل المال المغري جعلني أتعجل نيل حصتي من الميراث، حتى وإن كان السبيل إلى ذلك هو موت عمتي قبول.. إلا أني خشيت أن ينكشف جرمي بفعل الروائح العطرية التي تفوح من الصندوق المكين، ولكن لحسن الحظ أن العبق بات ملتصقاً بأغشيتها الأنفية، وبملابسها ومسامات جسدها وبكل شيء في حجرتها، وحينما اجتمعنا في المساء قلت قبل أن تبدأ هي بتوبيخي على ما بدر مني في النهار:

–أرجو أن يعود حقل البن المحاذي للمقبرة إلى الأرض الموقوفة، وذلك عين الصواب..

–لا تأخذ أقوال سعد المسفل على محمل الجد، فطالما أعرف هذا الحقل مزروعاً..

–هناك وسيلة أخرى لنعرف ذلك، وهي البحث في صندوق الأوصياء، فلدي وثائق قديمة جداً ورثتها عن أجدادنا الأوصياء..

لا أدري كيف خطرت لي هذه الفكرة، كانت الوثائق ما زالت محرزة منذ قرون في الصندوق، وكأن أجدادنا القدامى كانوا يدركون حدوث مثل هذا اللبس، ولمست الوثيقة التي تثبت حدود المقبرة بحذر حتى لا تتمزق، وهو التاريخ الذي كان فيه"الواقف" كائناً بشرياً متحركاً قبل خمسة قرون، ولكني لم أعثر على اسم هذا الحقل ضمن

الحدود التي تحيط وتحدد معالم المقبرة، مما ينم على أن الحقل هو امتداد طبيعي لأرض الواقف، ولم أدع الموضوع لتخمد جذوته أو يذهب صداه، بل وضعت الدليل الناصع أمام عمتي قبول وقرأته لها في وضح النهار، فأخذت الوثيقة بسرعة وخبأتها تحت حزامها، وقالت بصوت متبرم متعالٍ:

–لماذا تحشر روحك في أمر الحقل، وهناك ما هو أكثر أهمية من هذي الصغائر..

وباعتباري كاتبها أبديت لها قلقي مما تفعل في الفترة الأخيرة، وذلك حينما لاحظت أنها تكاد تعيد ما اقترفه الأمين السابق صويلح جوهد.. فعادت إلى القول بتأنيب:

–اسمع، منذ اليوم لم تعد وصياً للمقبرة ولم تعد كاتبي...

–ماذا... أنا لم أختر هذه المهنة.. لقد اختارني الواقف..

–بل أنا الوصي الحقيقي للمقبرة لأني الأكبر..

–أظن الوصية تشير إلى أن الوصي هو الابن الأكبر..

–الابن هو الذكر والأنثى، ليس هناك فرق بين الرجل والمرأة.. ألا ترى إنني اليوم أمين القرية! من كان يظن أن يحدث ذلك، ولكنى أفوق الذكور حكمة وعقلاً..

وهكذا وبيسر أعفيت من عمل المقبرة، وهو العمل الوحيد الذي حرصت على مزاولته مذ كان والدي على قيد الحياة، وهذا حز في نفسي

وجعلني أخشى مخالفة وصايا جدي الواقف ووالدي، ولكنا جبلنا على طاعة واحترام الأكبر سناً في العائلة، وهكذا لم يعد لدي شيء أقوم به، وهذا أفرحني بقدر ما أحزنني، وتمنيت أن تتحمل عمتي قبول وزر ما يحدث للمقبرة من دمار، ولذلك سلمت أدوات الدفن وأكياس النايلون إلى العم قاسم وهو فلاح ضعيف النظر والعزم، ولكني رفضت أن أسلمه وثائق الأوصياء، على اعتبار إنها إرث عائلي عريق لا يجوز التنازل عنه لأي شخص من خارج سلالتنا، كما أصبح لديها كاتب متملق خنوع، يظل فاغراً شدقيه على الدوام بضحكة مزيفة خرقاء، ويكتب ما تملي عليه دون أي اعتراض، وصارت عمتي قبول تمشي بخيلاء، مثل أي شخص يأخذ عن نفسه فكرة غبية بأنه

من سلالة عريقة مقدسة، ورغم ذلك فقد تحسنت وسائل عيشنا في المأكل والمشرب، وصار هناك من يرتاد السوق رأس كل أسبوع من أجل أن يجلب لنا صنوف المؤن، ولا يكاد يخلو يوم دون أن تأتي امرأة من نساء الأهالي لتطهي طعامنا، لأننا بتنا وجهاء إضافة إلى أن لدينا فلاحون يعملون في أرضنا الواسعة ، وقد أصبحت نعمة وأولادها من أولئك الفلاحين، وأصبح عماد الناعم اليدين يشكو من تشقق باطن قدميه وكفيه، وأخبرني عن عجزهم المطلق في استدراج والده إلى المشفى، وذلك لأنه يظل نافراً محتاطاً، وقد أعيتهم الحيل دون أن يفلحوا في الإمساك به، فما إن يرى شخصاً يقترب منه حتى يطلق العنان لقدميه ويفر إلى مكان مجهول، وخلال هذه الفترة، هجرت"نعمة"

وأولادها منزلهم في القرية القديمة، لتنضم إلى القرية الوليدة، حيث شعرت أن ذلك المنزل مكان غير صالح للعيش الهادئ، ولعل الابتعاد عنه سيخفف ما في نفسها من آلام، وقد أنفقت المال الذي حصلت عليه لقاء الحقول في بناء منزل متواضع قرب دارنا، وسرى عليها نفس النظام المعمول به، فتعاون الجميع معها وأشعروها بأنها ليست وحدها، فاستكانت وأمنت في مقامها الجديد، ولم تلمس من الأهالي أي نزعة نحو الانتقام أو الجفاء بفعل ما أقترف زوجها في الماضي، ورغم ذلك ما زالت تتوقع بين حين وآخر أن يصدر عن جيرانها أي فعل أو قول يفضح مستقبل عائلتها المشين، حتى عمتي قبول وهي الأكثر غطرسة وتعالياً بين سكان قريتنا،لم يبدر

منها أي شيء يشي بالاحتقار، بل لقد استقبلها الأهالي كما تستقبل المعدة وجبة خفيفة، أو مثل سقوط ريشة على فناء واسع من دون أن يكون لها أي تأثير يذكر، وكان هذا الجو من التجاهل والتغاضي ملائماً للعائلة، والحقيقة هو أن القرية الوليدة لم تكن مدينة أفلاطون الفاضلة، ولكن الأهالي لم يجدوا ما يستحق السخرية، ويكفي ما تعرضت له هذه العائلة من مآسٍ، كما لم يعد لدى جيرانها وفرة من مشاعر الحزن على حالها، بل إن كل واحد منهم يملك من الهموم ما يغني عن التفكر في هموم غيره، وقد اعتادوا الأزمات حتى أصبح وجودها لا يحرك فيهم فضولاً، وفي يوم خالج عمتي قبول شعور بالذنب، فذهبت تبحث عن صويلح جوهد في المقبرة، وهناك وقفت فوق

الكوة التي يستخدمها الأخير كمأوى، واستقبلتها رائحة كريهة، ورأت الفضلات منتشرة على هيكل عظمي لميت ما، وانتابها الفزع وهي تتخيل عودة الكوابيس القديمة، وقالت بضيق:

"لم يسلم منه الموتى حتى وهو معدم العقل!"

ثم أطلت على حقل البن فكانت شجيراته الخضراء الداكنة مليئة بالزهر الأبيض والنحل تحوم عليه وتنقل اللقاح من زهرة إلى أخرى، وكان ذلك مؤشراً طيباً لغلة وفيرة، وعادت وهي سعيدة بما رأت، ولمعت في ذهنها فكرة إقامة سور متين يحيط الحقل ويحميه من المياه،ولم نكن في فصل الربيع رغم ما يشيعه الحقل من تباشير، ولكن شجر البن في قريتنا– ولسبب ما — يزهر في

العادة قبل شهر من حلول الربيع، ورغم قرار استبدالي صرت آتي في السر لأتأمل ذلك المحيط الهادئ الفسيح، وعندما اكتشفت الكوة التي يقطنها صويلح جوهد شعرت أن المكان في طريقه إلى الإهمال ما لم نضع حداً للقذارة، فكنت كلما أزلت الفضلات عن القبور يأتي صويلح ليفعلها في مواضع جديدة، وحين ردمت الكوة التي كان يستعملها كمأوى، اعتقدت أني قد قضيت على هذه المشكلة، ولكني حين عدت في اليوم التالي، وجدت كوة أخرى مفتوحة مليئة بالقذارة، ووجدت صويلح جوهد بداخلها كأنما يتحداني أن أفعل شيئاً يحول دون سكنه في المقبرة، وسمعته يقول وهو لا ينظر إلي رغم معرفته بوجودي:

"أنا ميت.. وهذا هو قبري.."

واقشعر بدني رغماً عني، وعدت أدراجي مباعداً بين خطاي، وكففت عن التفكير في العودة إلى ذلك الجزء من المقبرة، واعتزمت مكرهاً أن أحترم إرادة ذلك الميت الحي. وقد اكتشفت أني أمسيت أخشى الأحياء، وهذا شيء غريب على رجل ولد في مقبرة..

الفصل السابع

أرادت عمتي قبول أن تستبق الأحداث، فأتت إلى المقبرة قبل يوم من بناء السور، وجعلت تقرأ قائمة طويلة من الأذكار والابتهالات التي حفظتها بالسماع، طالبة من الموتى الإذن برفع سور صغير حسب قولها، وبررت ذلك برغبتها في الذود عن حقلها الذي يعود ريعه إليها، وإلى امرأة مسكينة هي زوجة رجل معتوه خلَّف لها عدداً من الأولاد والبنات، ودون أن تتلقى أي جواب أعطت نفسها الإذن بدعوة العمال للبدء في العمل، وفي صبيحة اليوم التالي أتت شاحنات محملة بالأحجار والاسمنت، وانتهكت سكون المقبرة وحطمت

شواهد القبور التي وقفت في طريقها، فجئت لكي أحول دون تقدمها، ولكن الأهالي أجبروني على الابتعاد، وجعلت أصيح بملء حنجرتي:

–ابعدوا هذه الشاحنات عن المقبرة قبل أن تحيق بنا الأحزان، هل نسيتم ما حدث قبل عام؟

ويبدو أن قولي هذا جذب انتباه الأهالي، غير أن عمتي قبول صرفتهم وراء أعمالهم قائلة:

–هيا، دعوه وشأنه، لم يعد وصياً على المقبرة.. أما الأحزان التي يتحدث عنها فقد حلت..

وفي المساء، حاولت أن أسديها النصح، ولكنها لم تشأ أن تسمع مني حرفاً مبررة ذلك بأني لم أعد كاتباً لديها، وعرفت أنها أصيبت بجمود شديد، وكأنها صخرة صماء، ولم يعد هناك أمل

في أن تلين، وما أرعبني —ليس الخوف من أن تعود أحلام الموتى —بل هو ذلك الجفاء الذي لمسته منها، لم تعد تعيرني أدنى اهتمام وكأني ذكرى مؤلمة من الماضي، بينما تقضي جل وقتها في تتبع شئون حقولها الجديدة، وفي سماع أخبار تافهة لم تكن تهتم بها مطلقاً، وأصبحت لها فلسفة جديدة عن الحياة، وصارت تقول إنها لا تدري كم من الأعوام ستعيش، ويتحتم عليها أن تتفادى الضعف قدر ما تستطيع، وما زالت تعتبرني من أولئك الضعفاء المثاليين الذين يحاولون أن يصنعوا من ضعفهم قوة تنعش قلب العالم القاسي، ولهذا نبذتني وحاولت أن تبالغ في إيلامي من خلال نسياني، حتى كدت أن أسقط فعلاً في فخ النسيان، ولكن أتت طلائع الكوابيس

لتعيد بعض محاذيري إلى الواجهة، فقد حلم الأهالي الذين يعملون على بناء السور أن الموتى تبتر أقدامهم وأذرعهم بمقاطع أمضى من الموسى، ولما طلع الصبح ولم يخرج العمال لبناء السور، ذهبت عمتي قبول لتستفسر عما يجعلهم يضربون عن العمل، وفوجئت بهم يقولون على لسان رجل واحد:

–لن نضع أيدينا على هذا السور أبداً..

–هل تطلبون زيادة في أجوركم أيها الجشعون؟ ألم نتفق في هذا الشأن؟

–ليس الأمر كذلك،بل كيف نعمل والموتى تُقطِّع في أجسادنا طوال الليل..

–هذا ما كان ينقصنا.. عودة الموتى إلى أحلام العمال..

وحاولت استقدام عمال من القرى المجاورة، ولكن خبر الكوابيس كان قد سبقها إليهم، وعادة ما تصل الأخبار محرفة قليلاً أو بعيدة كثيراً عن الواقع، ولذا رفضوا أن يجازفوا بالمجيء إلى القرية التي هجرت بفعل أشباح تخرج في الظلام لتهاجم الأحياء، وأوشك مشروع البناء أن يتعثر حتى أتى عمال من المديرية لم يروا القرية من قبل، ولم يسمعوا عنها أي شيء قد يثني عزمهم، وبدا لهم الجو لطيفاً في النهار والأهالي طيبين، ولكن الليل–الذي ينتظرون أن يتخلصوا فيه من إرهاق العمل–هو الأسوأ، حيث تراءت لهم أعداد كبيرة من الهياكل الميتة تهاجمهم وتقتلع عيونهم وأصابع أيديهم، بل وتصلبهم على السور الذي يرفعون هامته عالياً، ورغم ذلك، صمدوا حتى

اليوم الأخير الذي أعلنوا فيه أن المياه مهما كان حجمها لا يمكن أن تخترق البناء، وتنفست عمتي قبول الصعداء، وأعلنت بأنها أكملت آخر فروضها الضرورية، ولكن ما إن استردت أنفاسها حتى جاء نبأ موت الأمين صويلح جوهد داخل كُوَّته في المقبرة، ولم يفعل الأهالي أي مجهود لدفنه، لأنه كان قد حفر قبره بنفسه فقرروا أن يدفنوه في موضعه، وأقاموا له عزاءً متواضعاً حضره الأهالي وبعض معارفه وأصهاره المخلصين، ورأيت حلماً أنذرني باقتراب المعاناة، فذات ليلة حلمت بأن عدداً كبيراً من الأبقار تهاجم قريتنا، وحين أفقت مضيت تواً إلى الأهالي واحداً واحداً، وجعلت أحدثهم عن المصير الذي سيلحق أبقارهم، وحينما كنت أنذرهم قابلني القليل بازدراء وتجاهل،

والبعض جعل يعدد الأمراض التي يمكن أن تقتل الأبقار، (العكاش)، الطاعون، عسر الهضم، الدودة الشريطية، وجنون البقر.. وأما عمتي قبول فقد بدت غريبة، ولم أعد أعتبرها سوى أمين القرية وحسب، ولم يكن أحد يقترب من حجرتي سوى عزيزة المكتنزة التي تصنع طعامنا في الغالب، وتطل عليّ تحت ذرائع شتى، في البداية جاءت تشكو من غبار علق في إحدى عينيها، وطلبت مني أن أنظر إلى داخل بؤبؤها لأزيل ذلك الشيء بطرف منديلها الأبيض، وحال اقترابي ونظري، التصقت بجسدي وجعلت تضمني إلى نحرها الواسع متصنعة الألم، وعينها الأخرى المتحررة تسرح في ملامحي وتستقر على شاربي

الكث، وتجمعت قطرات العرق فوق جبيني وقمة أنفي، وضايقها صمتي..

–هل ترى شيئاً في عيني؟سألت.

–لا.. لا شيء.. أجبت بحزم.

–ما هذا الذي يتحرك أسفل بطني أيها السيئ؟

ـ لا شيء.. قلت بلا وعي..

لقد أثارتني هذه المرأة، ولكني لم أشأ أن أعترف بذلك، ولعل الإجابات المقتضبة الجافة تحمل انطباعاً سيئاً لدى النساء، وتصورتها وهي تأخذ فكرة سيئة عني، وترد ثقل لساني إلى ميلي الغريزي إلى الاهتمام بشئون المقبرة والموتى، وسألتني:

–هل تتوقع أن يحدث شيء في القرية؟

–نعم سيحدث شيء مقيت، لم تخب أحلامي أبداً. أجبت.

–ما هو ذلك الشيء؟ سألت ببرود:

–إنه وباء يخلف كثيراً من الجيف.. قلت متكهناً.

–لن أخضع لتهديدات الفقيه هذه المرة أيضاً.. قالت بشرود.

–ماذا بوسعه أن يفعل؟ قلت متعجباً مهوناً من خطره.

–نعم، لا شيء، ولكن.. إنه يهذي دائماً، لا تهتم لأمره .. أنا لا أطيقه..

ومضت وأنا في غاية السرور لأن كلامها كان رقيقاً ويوحي بالثقة والود، ولم أهتم بشأن

التهديد، لأني كنت أظن الفقيه أضعف من أن يفعل شيئاً.. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وبينما كنت نائماً في حجرتي، شعرت بحرارة خانقة، وحين أفقت، رأيت ضوءاً أصفر يتهادى عبر زجاج النافذة، ثم سمعت الصراخ، وسرعان ما ملأ الدار ضباب كثيف من الدخان، وبالكاد استطعت الخروج ، كانت عمتي قبول مستلقية على الأرض تسعل، بينما هب الجيران محاولين احتواء حريق شب في مخازن أعلاف الأهالي المتلاصقة، كانت سماء القرية مضيئة، وسمعنا أصوات الاستغاثة تأتي من هنا وهناك، واكتشف المنقذون أنفسهم أن مخازن أعلافهم تحترق، فهبوا لنجدة منازلهم، لكنهم في الواقع لم يفعلوا شيئاً سوى إبعاد أطفالهم عن طريق

الحريق، ومراقبة النيران عن كثب، واحترق الباب الرئيس والنوافذ الخشبية لدارنا الجديد، وامتلأت نفسي بالنقمة على الموتى الذين ينصبون الكمائن ويؤذون الأحياء، ولكن شيئاً دار في ذهني ينفي عنهم هذا العمل الشائن، فليس من سماتهم الحرق والهدم، وما إن انقشعت الظلمة حتى رأينا الأضرار الهائلة التي أصابت القرية، وتصاعدت الأصوات المنددة بفكرة دمج مخازن الأعلاف والحظائر والمنازل، فقد نفقت جميع الحيوانات في الحظائر، واحترقت الأعلاف والمنازل البسيطة المبنية بالقصب والعيدان، وأثخنت عجوز عمياء بحروق بالغة، وانطمست معالم القرية، وبدت وكأنها قصفت بقنابل حارقة، وبدأ العقلاء يبحثون عن الأسباب، وكان الجميع متفقين ولأول

مرة بأن هذه الحرائق من فعل شخص حي، يريد أن يخلق معاناة جديدة للأهالي، وبدت عمتي قبول منهارة وهي ترى قريتها تفنى خلال أربع ساعات من الزمن، ليلتها لم تنطق بحرف واحد رغم رغبة الأهالي في الاستماع إلى تعليقها عن الحادث، لكنها كانت دائخة ومشوشة ولا تجد ما تقوله، وكأنما شعرت بحاجتها إلى الراحة والهدوء، فأرسلت في طلبي وجعلت الأهالي يجتمعون حولي، وعند الظهيرة قالت بأسى:

–إن كان هناك شخص لديه معلومات عن الجناة فليتكلم..

وكان التفكير في عدد المذنبين أمراً مستبعداً، إذ بوسع شخص واحد أن يفعل كل ذلك الخراب، وبدا عقلي يفكر في رجل بعيد عن

الشبهات، ولذلك قررت أن أكتم الأمر حتى أطمئن على حال عزيزة، وذهبت أسأل عنها في منزله م، فأخبرني والدها قاسم بأن زوجها أخذها في المساء إلى منزله .. كنت غاضباً ومحتاراً وكذلك الأهالي، وصار هناك من يوحي إلى مصير أسود في قرية أمينها عجوز، ورأى البعض بأنها بدأت تنشغل بنفسها وأرضها، وفي الوقت الذي لا يجدون لأجسادهم مأوى مريحاً تقطن هي داخل دارها الحجري الكبير، مخازنها مليئة بالحبوب، والنقود تجري في يدها كماء الجدول، وكان على عمتي قبول أن تفعل شيئاً يخفف من غيظ الأهالي، فجاءت إلى حجرتي وجثت قرب موضعي قائلة:

–الأهالي منزعجون بسبب ما حدث، تعرف أن منزلنا من الحجر، ومنازلهم من الطين والعيدان... وقد التهمت النيران منازلهم ومواشيهم، بينما لم نفقد شيئاً ذا قيمة..

–علينا إعادة بناء القرية بالحجر والطين، والفصل بين مخازن العلف والحظائر.. علينا تحمل النفقات..

–لقد تحملت الكثير، لست المسئولة عن الحريق. وهذا العمل يحتاج مالاً جماً يفوق طاقتي..

قلت في سري: لا تكذبي أيتها الجشعة، لقد رأيت ما في الصندوق، هناك الكثير من الورق والذهب.. وأضافت برتابة:

–هل تدرك من هو الفاعل؟

–ربما الموتى وربما بعض المرتزقة القدماء.. وربما فعلها شخص يؤدي الصلاة في أوقاتها..

–أرى أن تتولى ومن شئت من الأهالي مهمة مراقبة مداخل القرية..

–ولكن لم تعد هناك قرية..

وخرجت عمتي قبول محتدة، وطلبت من الأهالي إعادة بناء المنازل، وسوف يتم تأمين حراستها وتحصينها، ونفحتهم أموالاً صغيرة لتعويض حيواناتهم النافقة، لأنهم لن يستطيبوا الإقامة دونها، وتشجع الأهالي وأعادوا بناء منازلهم من لاشيء وكيفما اتفق، ولكن ليس على المعايير اللازمة لتحاشي الحرائق.. وفي تلك الأثناء ذهبت إلى صديقي عماد، وطلبت منه أن يعيرني سلاحاً نارياً، فأخبرني أن معظم السلاح أخذه

الأتباع المرتزقة، والجزء الأقل تم بيعه لسداد أموال الدائنين، إلا أنه وتحت إلحاحي تذكر سلاح والده، فسار خلسة ينبش في الكوات والمخابئ عمق منزلهم القديم، حتى عثر على بندقية أبو منظار وعلى مسدس أبو عجلة في أحد مخازن الخردة المظلمة خلف براميل حبوب فارغة، ووجد إلى جوارها طلقات كثيرة في كيس خشن، واستطاع أن يتعرف بسهولة على سلاح والده الشخصي الذي كان يتباهى به كثيراً، ولعل ذلك هو قدرنا في أن نعثر عليها، لتتشكل الأحداث المدهشة فيما بعد، والتي أحزنت البعض وأفرحت البعض الآخر، وكم كانت فرحتنا ونحن نخفيها في حجرتي خلف كوم من الأثاث المستهلك، وحين تغفو العيون نستمتع بالتسلل إلى

السطح للنظر عبر المنظار الليلي إلى أرجاء القرية، وإذا سمعنا أقل حركة في الخارج نسرع لإعادتها إلى مخبأها الأمين، وكم من مرة يخدعنا قط أو طائر، واكتشفنا أننا نخشى أن تنتزع منا، وأننا لن نتورع عن إطلاق النار على من يحاول أن يسلبنا غنيمتنا، وكلفت نفسي وعماد بالحراسة الليلية، فاخترنا موضعاً ممتازاً إلى جوار المقبرة القديمة، ووضعت منزل الفقيه عبدالقادر نصب عيني، لأنه أخذها عنوة وربما يعذبها كما فعل مع ابنته صفية، حين كانت في منزلهم كانت تجد الذريعة المناسبة لتقترب من حجرتي، لكنه حرمني من إطلالتها العذبة علي، آه آه، الآن صرت أراقب الطرقات مختبئاً عن العيون وسط (عشة) تعتلي شجرة عَسَق ضخمة مثل عش طائر

(عُماري)، ولا يعلم فيها إلا أنا وعمتي قبول وعماد، كنت أجتر الذكريات وأرى بألم الضوء المتسلل من نافذة ذلك المنزل، ولا أكاد أشعر أن ثمة شخص اًإلى جانبي، كانت المقبرة القديمة موحشة، ولم يعد هناك منازل آهلة بالسكان خلا واحداً يخص الفقيه عبدالقادر، وقالوا إنه قد حصن نفسه بالآيات القرآنية والتمائم، ولم تعد الأحلام المخيفة تأتيه، ومما أثار حنقي هو أن الضوء المتسرب من تلك النافذة لا ينطفئ، وهذا دفعني إلى التكهن بأنه يقوم بتعذيب عزيزة، حاولت إقناع نفسي بأن ذهابي يشكل خطراً وإهمالاً، ولن تتوان عمتي قبول عن طردي فيما لو علمت أنني أقوم بأعمال شائنة، ومع ذلك، ظل أمر الضوء يشغل حيزاً من أفكاري، ولا أدري

كيف سرنا متلمسين طريقنا في الظلمة، حتى لبدنا خلف النافذة المرجوة، في الداخل لاح عبر ستارة النافذة طيفان يتحركان، وسمعنا صفعات بالأيدي وصرخات ألم مكتومة وتأوهات كائنين يتضاجعان، حتى اختلط علينا الأمر ولم نعلم ما يحدث، أهو عذاب أم متعة؟ في تلك الأثناء انطلق نباح كلب أتى مسرعاً نحونا، وركضنا في الطريق نحو شجرة العَسَق، وفي هذه اللحظة بالذات، أدركت البون الشاسع بيني وبين عماد الذي فر كغزال سريع، بينما شل الخوف حركتي، فثقلت قدماي وصرت ألهث بشدة، وسرعان ما اقترب مني ضوء مصباح مشع حتى أوشك أن يدركني، ولم أعد أستطيع الاستمرار في الركض، وجاء إلي هذا الصوت الآمر:

–قف مكانك وإلا أطلقت النار..

ثم سلط نحوي ضوء المصباح وتمتم:

–هذا أنت يا ذيل الكلب، لا تتحرك يا خادم العجوز..

ورأيته على ضوء المصباح يصوب نحوي مسدسه، فوقفت مترنحاً تعباً أنتظر قدري، وأخيراً تذكرت أن مسدس أبو عجلة في حزامي، فصوبته نحوه بسرعة غريبة ، وعند ذلك انفجر عيار ناري، فنزل الماء الساخن على فخذي، في حين اختفى الرجل عن مجال النظر، وقلت لنفسي: هل أطلقت أنا النار أم هو الذي أطلق؟ هل هرب من مواجهتي أم هو مختبئ خلف الحجر الذي أسند جسده عليه؟ وعاد عماد وهو يصيح بفجيعة:

–من أطلق النار؟

–لا أدري أنا أم هو؟ لقد اختفى الرجل خلف ذلك الحجر. أجبت.

وتقدمنا ببطء نجر جسدينا الخائرين، وأنا أصوب مسدسي بحذر حتى وقفنا على الحجر، وهناك رأينا الرجل مستلقياً على ظهره، إلى جواره مسدس أبو عجلة يشبه مسدسي تماماً، ومصباح يدوي مضيء، وسلط عماد ضوء المصباح اليدوي على وجه الرجل، وصاح بلا شعور:

–يا للمصيبة، هذا الفقيه عبدالقادر..

–هل هو ميت؟ قلت ذلك بفجيعة..

كان جبينه مثقوباً والدماء تسيل بغزارة، وأصابنا الارتباك، وتركنا الجثة بموضعها خوفاً من أن نصنع أدلة تشير إلينا، وفررنا من المكان

يتعقبنا الكلب بنباحه حتى وصلنا إلى دارنا الجديد، وشعرنا بارتياح جم لأننا لم نصادف شخصاً في طريق عودتنا، وكان ذلك اليوم من أشأم الأيام في حياتي، من بعده صرت أمشي مثقلاً بهذا الذنب الخفي، وغمرني إحساس غريب بأني لن أتلذذ بالعيش أبداً، ولعل هذا هو الشعور الأول الذي يصيب الجاني في المرَّة الأولى، ولكنه على الأرجح قد يتجاوز خوفه شيئاً فشيئاً كلما أزهق نفساً جديدة، حتى يصل الأمر إلى درجة الاستمتاع بإزهاق الأرواح، وعند الفجر وبعد تردد، قلت لعمتي قبول بتوتر:

–أطلقت النار على عبدالقادر، وجثته الآن خلف حجر قرب شجرة العسق.

–لا حول ولا قوة إلا بالله، هل يعرف أحد بذلك غير عماد؟ صاحت بفزع.

–لا أحد.. عدا كلب طاردنا حتى دخلنا الدار..

–اكتم هذا الأمر، وسأبعث أحدهم ليخفي آثاركما..

وشعرت بارتياح لم أحسه من قبل، وندمت أني لم أسلخ جزءاً من جسده كتذكار، ويبدو أنني نظرت إلى هذا الرجل كأقذر شيء في الوجود، إنه أكثر شخص أمقته، على هذا النحو أصابتني الغيرة،والتهب جسدي بالحقد عليه، وتساءلت عما يدفع عزيزة إلى أحضان رجل يتقزز من تقبيلها في فمها. ولكنه كان يأخذها عنوة إلى بيت الطاعة، ونسمعه يقول على الدوام في مواعظه:

"اضربوهن واهجروهن في المضاجع عند نشوزهن"،لكن أعرافنا في الريف لا تسمح للرجل أن يضرب زوجته، فلماذا يضربها الفقيه عبدالقادر؟ ولماذا تلوذ هي بالصمت؟ ولا أجد أي تفسير لذلك، حتى أخبرتني عزيزة في اليوم التالي أنه وعدها أن ينهي معها عملية الطلاق، على أن تبيت معه ليلة واحدة، من ثم تعود صباحاً إلى بيت أبيها، وفي يدها وثيقة الطلاق،كان يائساً ومغلوباً على أمره، ولم يكن في كلامه أو تصرفه ما يدعوها إلى الشك بسلامة نواياه،وقد تصرف معها بوحشية على الفراش، ومارس الضرب أكثر مما مارس الجنس، كان يشعر بأن ذلك هو آخر أيام الزوجية، ولعله أراد أن يترك آثاراً واضحة على جسدها للذكرى، كان يبدو حذراً للغاية ويتوقع

أن هناك من يراقبه على الدوام، وفي اليوم الذي اختفى فيه سمع نباح الكلب، فأحس بخطر محدق جعله يترك جسدها ، وينطلق شبه عارٍ ليلاحق شيئاً ما خارج المنزل، وما زالت تذكر أنها بعد لحظات، سمعت صوت عيار ناري، ومنذ ذلك الحين لم تر الفقيه أو تسمع عنه خبراً.. حتى أنها ظنت أن المقبرة ابتلعته كونه الوحيد الذي ما زال قاطناً فوق رؤوس الموتى.. عرفت أنها تقول الحقيقة، غير أني لم أخبرها بما حدث. لقد كتمت عنها ذلك، لأني لم أعرف بعد كيف ستكون ردة فعلها.. كنت محتاراً متردداً، وأفكر في بعض الأوقات أن أفصح للأهالي عن ذلك الحادث.. إلا أنني جبنت، وفضلت أن أظل محتاراً وخائفاً من ظهور الجثة في أي وقت من

الأوقات، وبعد مرور عام على اختفائه، استطاعت عزيزة أن تتم رسمياً عملية الانفصال عن زوجها في محكمة المديرية، وظلت تنتظر أن أخطبها وأعلن الزواج بها في أقرب وقت.. ولكني صرت أماطلها طالباً منها التريث حتى تنجلي بعض الأمور، وظلت تنتظر قدومي إليها، وتلح على ضرورة أن نرتبط بعلاقة واضحة لا تشوبها شائبة، ولكني كنت أدرك بأن هناك من سيربط بين زواجنا واختفاء الفقيه عبدالقادر، لذا كنت أعذرها لأنها لا تدرك ما حدث.. وكانت عمتي قبول لا تدرك من يقطن هذا الدار، أحياناً يأتي عماد لنتحدث عن مستجدات قضيتنا، وقد ينام في موضعه حتى الصباح. وأحياناً تمكث عزيزة في إحدى حجرات الطابق الثاني، وفي أي وقت ترغب في مسامرتي

تأتي متسللة إلى حجرتي في الطابق الثالث.. ولا تنس أن تغلق الباب وراءها.. ثم تثيرني وهي ما زالت مرتدية ملابسها، وحين تشعر بأنها ستضعف وتستسلم لهياجي تنسل بهدوء خارج الحجرة مثل حلم سعيد.. وفي ليلة وبينما هي في حجرتها حلمت أن الموتى يخرجون من مراقدهم صارخين منزعجين، وكان الفقيه يطاردني في كل مكان أذهب إليه، وصحت بأعلى صوتي، فأقبلت عزيزة وهي تقول هامسة بخوف:

–ماذا جرى لك؟

–عادت أحلام الموتى. أجبت.

–وما الجديد في ذلك؟ ردت باستخفاف ..

–سيحدث شيء في هذا الصيف .

–وماذا يمكن أن يحدث في الصيف غير هطول المطر؟

–لا أدري، استر يا الله..أجبت.

وغادرت غرفتي وهي حانقة، لأن كل حادث سيء يعني تقليص فرص الزواج، وماذا يمكن أن يفيد تحذيري الأهالي، وقد أتت المياه وقلبت عالي المقبرة سافلها، وحطمت السور العتيد، واقتلعت أشجار البن من جذورها، وأمست الهياكل العظمية والجماجم تلوح من بعيد، لافتة النظر بلونها الأبيض المتغلغل وسط اغبرار الطين، ووقفت عمتي قبول موقف الأمين السابق قرب الأطلال، وجعلت تبدي فداحة وهول الكارثة بالرغم أنها لم تكن بحاجة إلى إظهار ما هو ظاهر

للعيان، وحصلت من بعض الأهالي على وعود لتقديم العون في الأيام القادمة، ولكن ليس بوسعهم إزالة ذلك الكم الهائل من الطين بمفردهم، وبدت تشير بتلميح إلى أن ما في الحقل من ركام لني زول بدون استخدام آلة، وستفكر في استقدام جرافة،وسوف تتحاشى وقوع الأخطاء السابقة التي حدثت في عهد الأمين السابق، ثم أخذت تمشي بين القبور وهي تحدد المواضع التي ستسلكها الجرافة للوصول إلى قلب حقلها المندثر، معتقدة أنها تستطيع أن تقيم للآلة سبيلاً خالياً من القبور، يرافقها العم قاسم الذي أوكلت إليه مهامي، وقد بدا وكأنه يعينها في رسم خ ط عبور الآلة، وهكذا أمسى أمر بناء سياج حول المقبرة، وأمر ضم الحقل إلى ملكية الوقف أمرين

مستبعدين، وبدلاً عن ذلك، صار أمر حماية القبور هو أقصى هدف أحاول تحقيقه..

وصبيحة اليوم الذي هدرت فيه الجرافة وهي قادمة نحو المقبرة، كنت وعماد واقفين لها بالمرصاد، واعتبرت عمتي قبول هذا تمرداً وعصياناً لإرادتها، وأسرعت وطردتنا من الدار، ثم أخطرت الأهالي بعدم التعامل معنا أ و إيوائنا، وأصبحنا منبوذين، ولكن " نعمة" أصرت على عدم ترك ولدها بدون مأوى، ولأول مرة في حياتها تبدو جريئة في مواجهة الأمين، وذلك لأنها قبلت أن تؤوينا في حيز ضيق داخل منزلها، على أن نعيد قطعتي السلاح إلى المخزن، وهذا العمل هيأ للجرافة السبيل لتدخل دون عائق، وغفرت عمتي قبول لنعمة عدم نبذنا، وقد بررت الأخيرة عملها

بأنه عمل احترازي من أجل احتوائنا .. وساعدتني عزيزة على حزم أمتعتي وهي تبكي، ثم قالت هامسة:

–لن يطيب لي البقاء عند العجوز..

–ستجلب امرأة أخرى بديلاً عنك. أجبت.

أفكر أنأ ضع لها السم في الطعام. قالت بنبرات حادة.

–اخفضي صوتك ، لم يعد أمامها الكثير لتعيشه. قلت بلا يقين..

–أخشى أن تدفنّا قبل أن تموت..أجابت بيأس.

ورحلت عنها، وهي بحال يرثى له من القنوط، وتمنيت أن تقوم بما اعتزمت عليه مخالفة فكرة الانتظار، لكني أريد أن أكون جاهلاً بأي

شيء سيحدث، حتى لا يعذبني ضميري في يوم من الأيام، لِمَ لم أمنع حدوث ذلك؟ وما حدث هو أن عزيزة لم تجرؤ على وضع السم في طعام العجوز، وحين جلبت إليها طعامها كانت عينا عمتي قبول تبرقان بالشك، وسرعان ما أجبرتها الأخيرة على ابتلاع جزء كبير منه، وظلت تنتظر اللحظة التي ستسقط فيها، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، واستبد الذهول بعمتي قبول، وباتت ساهرة طوال الليل، تراقب ما يجري خلف غرفة عزيزة الموصدة، ومن حين إلى آخر، تضع أذنها على فرجة الباب لتسمع أنفاسها المتصاعدة، وهكذا دواليك، حتى اطمأنت أنها على قيد الحياة، وفي الصباح، قمت وأنا أرجو أن أسمع خيراً، وسرعان ما أتت عزيزة لتخبرني بما

حدث، لقد سمعت العجوز حديثنا، فاحتاطت على روحها.. كان هذا هو التفسير المنطقي لما جرى..

الفصل الثامن

لم تتغير أحوالنا كثيراً، ولكن حال عمتي قبول لم يتحسن، فقد سقطت منهارة وسط القرية، فحملها الأهالي إلى حجرتها لتأخذ قسطاً من الراحة، ومن بعد ذلك اليوم، لم تستطع النهوض عن فراشها، حيث أقعدتها الشيخوخة التي لا دواء لها.. وحين أدركت أنها لن تعود إلى سابق عهدها، قررت أن تقوم بمجموعة من التدابير الوقائية، فأعادتني وصياً للمقبرة، وأوقفت غلال حقل البن لصالح المقبرة.. نحن كذلك عظم خوفنا من تفاقم المحن، وكان علينا بناء المساكن بشكل صحيح، واستعادة ثقتنا بكل ما حولنا، وتطلب

هذا اجتماعاً صغيراً تداعينا إليه دون الرجوع إلى أمين القرية، وهذا في حد ذاته اقتضى شجاعة وجرأة لا محدودين، واعتبرت عمتي قبول أن الدعوة باطلة لأنها تعني محاولة التصدي لقضاء الله وقدره، ولكن حسن الطويل قال بسخط:

-لا يمكن أن نظل مكتوفي الأيدي ننتظر الأمين لكي يفعل شيئاً.. لقد صارت العمة قبول مقعدة..

قال عماد بكل حرارة:

-الآن يمكنكم اختيار أمين قوي الجسد يستطيع الحركة إلى المديرية، هناك المجلس المحلي يوزع المشروعات على القرى، ومع ذلك لا نجد حظاً لقريتنا ولا أحد يعيننا على كوارثنا أو ينظر إلى مصابنا..

-كيف تعرف ذلك؟

–طالما كنت أسمع أبي يتحدث عن ذلك. وقد كان على علاقة حسنة برؤسائه في المديرية..

–من تظن أنه قادر على جلب الحظ الحسن للقرية؟

–العم ناصر لديه نوايا حسنة، وأظنه يستطيع أن يفعل شيئاً..

وهكذا أجد اسمي يطرح –لأول مرة– لتولي منصب هام كهذا، كان الأمر أشبه بالدعابة، وقال حسن الطويل بود:

–أنت معنا منذ ما يربو عن العام تتنبأ بما سيحدث. سنجرب حظنا معك.

وفي الاجتماع التالي، طرح حسن الطويل فكرة تغيير الأمين، لعل ذلك يأتي بحسن الطالع على القرية، وفوجئ الأهالي حين نطق اسمي وزكاني،

في البداية، وجدوا الأمر غريباً، بل بدا في نظرهم طريفاً ومضحكاً وفظيعاً في آن واحد، ذلك أن الفكرة التي عرفوها عن الأمين هي أن يكون بارز الصوت قوي الشكيمة. وليس أي شخص يمكنه نيل هذا المنصب.. قال حسن الطويل بعد أن لمس اعتراضهم:

-إننا اعتدنا على الأمين أن يكون كمن عرفناهم من قبل، ولكنا لم نجرب الأشخاص المهملين.. وأنتم تعلمون أنه سيحظى بميراث ضخم عما قريب..

قال سعد البكرة:

–ولكنه يفهم في الأموات والمقابر. ربما أزفت ساعتنا ليتولانا ناصر ونحن ما زلنا في عِداد الأحياء..

قلت:

–وأنا لم أطلب أن أكون أميناً، ولكن إذا اخترتموني ولم أنفع تستطيعون أن تزيحوني بسهولة وتختاروا غيري..

–اخترناك. اخترناك. عليك الآن الاهتمام بشئون الأحياء..

أعجبهم قولي وفرحوا أكثر بأنهم يستطيعون السيطرة عليّ عند إخفاقي، وبدا الأمر للبعض مشيناً والبعض الآخر مسلياً، وكان على الأهالي الذين اختاروني وذهبوا معي إلى المديرية، أن يحتالوا لإقناع المجلس المحلي بصلاحيتي

للمهمة، فألبسوني ملابس رجل من الوجهاء، وأرغموني على أن أرسم على ملامحي بعض التعالي وبعض الخبث وقليلاً من الانبساط والثقة، وعندما تحدثت إلى رئيس المجلس المحلي في المديرية جعلت أتحدث بصوت خفيض، وكان هذا الصنف من الأمناء خفيضي الصوت هو المحبذ عند أصحاب القرار في المديرية، وكانت عمتي قبول ما زالت تضحك من سلوك الأهالي العبثي، وهي تظن أنهم أصيبوا بأعراض الجنون، وأن ذهابهم لاختيار الأمين هو من الأمور التي تدعو للرثاء، وبعد عودتي لم تؤمن بأني فعلاً أمارس مهامها، ولكنها اعتقدت بأن الأهالي الساخطين يحاولون إثارة أعصابها وحسب، وسوف يعودون إليها حين تهدأ نفوسهم. وقد رأت عبر نافذتها

كيف هب الأهالي لمساعدتي على بناء مسكن مستقل، وكانوا يريدون أن أثبت مركزي الجديد بطلب أحجار (العباصر) و(الحبش) للبناء، ولكني على عكس ذلك طلبت الطين وعيدان اليراع وبعض الخشب ومخلفات الأشجار المتيبسة، حتى انتصب منزلاً طينياً صغيراً نقلت إليه متاعي القليل، ثم تبرع الأهالي ببعض الأشياء مما ينفع أن يكون مستلزمات مسكن متواضع، وبدت عمتي قبول تشك في الأمر، ولاسيما حين اختفى الأهالي عن منزلها المبني بالحجارة المصقولة الملساء، وبدلاً من ذلك أخذوا يأتون إلي، ويجلسون تحت عريش مظلل، تم تصميمه على أن يكون استراحة للاجتماع وشرب الشاي ومضغ القات وتبادل الأحاديث ولعب الدُمنة، وآمنت عمتي قبول أن

الأمر صار جدياً، وذلك حين كادت تموت من الجوع، لم يعد يتردد عليها سوى عجوز مثلها عاشتا الصبا، ونشأت بينهما مع مرور الأيام صداقة وذكريات مشتركة لا نعرف عنها شيئاً، أتت صديقتها العمة "مكية" مستفسرة عن سبب بقاء عمتي قبول دون طعام، فطلبت من بعض النساء أن يذهبن لمساعدتها، وفي آخر المطاف وافقت عزيزة من أجلي أن تخاطر في الذهاب لتعد لها الوجبات وكفى.. وانتظرت عمتي قبول بفارغ الصبر حتى جاء موعد سداد القسط الأول من ثمن الأرض التي شيدت عليها المساكن الجديدة، وأصرت على أن هذا الموعد لا ينبغي تجاهله أو تأخيره، وقد أوحى إليها ذلك الترتيب الماكر في صفوف الأهالي أن ثمة مؤامرة تحاك من أجل

تأجيل السداد، وهذا غير مقبول.. وكانت أول المتحدثين، فقالت متجاهلة خنوع الأهالي:

–أريد القسط الأول من ثمن الأرض، يكفيني ما لاقيت من عناء في سبيل بناء القرية.. لقد انتظرت ما يكفي.. ومدة عامين ليست قليلة..

–أمهلينا بعض الوقت لنرى ما علينا فعله..

قالت بخبث:

–لن أنكث في وعدي أبداً، ولن أتنازل عن يوم واحد..

وعندما يئسنا منها، جعلنا نجمع أقساطها ونقترض من بعضنا البعض، وباع الأهالي مخزون غلالهم وكلما يملكونه، حتى سددناها القسط الأول من قيمة الأرض، لا أدري كيف استطعنا فعل ذلك! وربما توقعت عمتي قبول أننا لن نتمكن من

سداد مالها في حينه، ومن ثم تستطيع الإمعان في إذلالنا، وقد اندهشت وهي ترى القسط الأول من ثمن الأرض في يدها.. وفي يوم قريب، دعتني إلى زيارتها، وذهبت في الصباح مغادراً منزلي الطيني حتى دخلت الدار الكبير الذي يلفه السكون والحيرة، ووجدتها مسجاة بدثار خفيف رغم دفء الجو، فمالت بشيء من الانفعال حين رأتني أدخل، وقالت بنبرات شاكية:

–إياك أن تظن أني أرغب في إيلامك، لم أعد أملك القدرة على الحقد..

–ولكنك غاضبة مني. وتعتقدين أني خطفت منصب الأمين.

–بل أنا سعيدة من أجلك، وحزينة لأني غدوت وحيدة في آخر المطاف، هل يمكنك أتتخيل أنك ستغدو مثلي؟

–ولكني لا أسمح للأهالي أن يحيطوا بي من كل جانب، لا يرافقني أحد سوى عماد. وحين أصاب بالسأم سأترك الأمر لأحدهم..

–اسمع يا ناصر، أريدك أن تأتي لتعيش معي هنا، يبدو أن حياتي ستتوقف في أية لحظة، ولا أريد أن أموت وحيدة..

–نعم، أنا الأمين الآن وكلامي هو الذي سوف يتم. علي أن أستقبل الزوار من اليوم وصاعداً، لذلك أرى أن تأتي للعيش معي في منزلي.

–لن أفارق مكاني هذا إلا إلى القبر.. ويمكنك أن تأتي لزيارتي لو شئت.

أعرف أنها كانت غاضبة، رغم قدرتها العجيبة على إخفاء مشاعرها الحقيقية، ورغم ذلك مضيت لأتابع حياتي الجديدة دون اكتراث، وكان الأشخاص الذين اختاروني لمنصب الأمين يظنون أن بوسعي فعل أي شيء من أجلهم، وكان علي أن أضع كل طاقتي للحفاظ على أعصابي هادئة، لأن أمزجة الأهالي كانت متقلبة وجامحة في الغالب، بل ويتعطش بعضهم إلى أن أكون مستبداً غاشماً، وهنالك من ينصحني بأن أسعى وراء المال الذي كان الأهالي يمنحونه الأمناء السابقين، ولكني كنت على خير ما يرام، أجني من كتابة العقود مايكفي لتغطية تكاليف معيشتي البسيطة، ولم أكن أطلب أجراً على هذه الخدمات، ولكنهم اعتادوا أن يعطوا أجوراً عليها، أما المتشاجرون

فيدفعون لقاء اجتهادي في حل مشاكلهم وهي كثيرة كما تعلمون، ويكون ذلك بمثابة غرامة صغيرة لا ترهق كواهلهم، وكنت أجد نفسي منساقاً حسب العادة إلى زيارة المقبرة والأموات، ولم يرحب الأهالي بفكرة عودتي إلى مهنتي القديمة، ولعل ما يرونه يناسب مركزي هو مضغ القات ولعب الدُمنة أو الشطرنج، فالمجهود الذي يبذل في هذه الألعاب هو ذهني وليس عضلياً، ومن ثم سيطر على الأهالي الحنق، وأقبل حسن الطويل إلى المقبرة القديمة متعثراً بخطواته الثقيلة وقال بحزم:

–نحن لا نود أن نراك منغمساً في مهنتك القديمة، فإنها لا تليق بك أيها الأمين..

قلت بارتباك:

–ولكني لم أنشغل عن مشاكلكم..

–يمكنك أن تختار الأموات أو الأحياء..

وعدت من المقبرة مثخن القلب والروح، ومن فينة إلى أخرى أتساءل باستنكار، كيف أجاري الناس على هواهم، بينما أقع طوال الوقت ضحية الملل والاجتماعات التافهة في استراحتي الظليلة، الاستراحة التي لا ينقطع عن زيارتها الأهالي الثرثارون، وهناك كنا نلعب الدُمنة أو الشطرنج، ونتبادل أحاديث تافهة وغير جديدة، بينما روحي معلقة بالأموات وأكياس النايلون وحتى الأحلام المخيفة، وهكذا، أصبحت مثل شخص قرر اعتقال نفسه في منزله وقت الأصيل، جلسائي هم رجال، ليس بيننا قواسم مشتركة خلا الثرثرة واللعب، أما همومي وتطلعاتي فلم يكن يحفل بها

أحد، وعندما حاولت أن أتنصل من المركز الذي تقلدته باختيار الناس وموافقتي، لم يكن ذلك ممكناً، فقد أحسوا براحة تامة في توجيهي وإدارتي وتعنيفي كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ولذلك رفضوا فكرة استبدالي بشخص آخر لا يعرفون صفاته وأساليبه، وقد سألتني عمتي قبول حين زرتها آخر مرة:

–هه.. كيف وجدت منصب الأمين؟

–ليس فيه ما يبهج، مطالب الأهالي كثيرة، ويتدخلون في جميع أفعالي..

ضحكت بتشفٍ وقالت:

–هذا لأنك بارد الأعصاب، ومتواضع أكثر من اللازم.. انظر إليهم بالعين الحمراء..

واستأنست بكلامها الودود، فهجرت منزلي الوضيع منذ اليوم التالي، وعدت إلى الدار الجديد حيث تقيم، وكأنما اكتشفت متأخراً أن المنزل الطيني الذي أقطنه غير ملائم، وقالت عمتي قبول المقعدة في فراشها حين رأتني:

–لا أريد منك شيئاً، هذا هو دارك، سترثه من بعدي، ليس عليك إلا أن تفعل بنصائح عمتك الطيبة التي ترجو لك الخير، وحين أموت افعل ما بدا لك..

واستسلمت لإغواء هذه الكلمات، وبدأ جسدي مع مرور الأيام يتطور سريعاً ليتلاءم مع هوى عمتي قبول وهوى بعض الأهالي، حتى أصبحت مثل حبل تتجاذبه الأذرع من طرفيه، صار لدي شارب أبيض مبروم، ووجه أحمر متجهم كئيب،

وكرش صغير بارز، لم أعد أكترث بشيء من التزاماتي، وانشغلت بنفسي، حتى بدأت أتلقى الأجور التي كان يتلقاها الأمناء السابقون، وصار عماد والأهالي ينظرون إليّ من الأسفل، وأنا أرمقهم شزراً من موقعي العالي، بل لقد استغليت حاجة عائلته للمال وابتعت سلاح والده، لأني آمنت بحسن طالع مسدس أبو عجلة الذي أصاب عبدالقادر في الظلام، لقد كنت أعي تماماً أنني أتدحرج، بل وأنزلق نحو هاوية لن أعود منها سالماً، وفي أول المطاف، كنت أتمنى أن يوقفني أحد، تمنيت أن يعترض عماد طريقي كما كنت أعترض طريق أبيه من قبل، لكن لسوء الحظ لم يجرؤ أحد على تحذيري أو مباغتتي بجرم التنكر ونكث الوعود، كنت سأجد في تمردهم علي،

ذريعة كافية لكسر القيود المحكمة على روحي المكبلة، سيكون لدي ما أبرر به تجاهل تعليمات عمتي قبول التي تساومني بالميراث، وسأنجو من إرشادات حسن الطويل المملة، والذي يرد لنفسه الفضل في بلوغي منصب الأمين، ولكنهم كانوا ينظرون إلي بذلك الأسلوب المبهم، بنظرات خرساء ملؤها الشرود والضياع، فانزلقت سريعاً بمحض إرادتي هذه المرة، بل وتلذذت بالسقوط وكافأتهم على صمتهم بمزيد من التحقير والازدراء.. حتى حسن الطويل بات يتملقني، وكافأته بالوثوق فيه وكلفته ببعض المهام، وبدا يرافقني أينما ذهبت، وكأنه وزيري أو نائبي، فأمشي رافعاً أنفي في الهواء، وكأني أشم روائح السماء أو أنظر نحو ملائكة الرحمن في بروجهم

العالية.. حتى أني لم ألحظ عزيزة وهي تدخل وتخرج من دارنا، لقد صرت أتفاداها وأتجاهل نداءها وعشمها في أن نعود إلى بعضنا، وحين لمحتها في إحدى لحظات تواضعي النادرة، كان شعوري مختلفاً، مازالت مثيرة رغم وحدتها وفقرها، ولم ينل الإهمال من نقاء وجهها المدهش، وقد حز في نفسي انتظارها في ردهة الدار لكي تخبرني عما يؤرقها، حتى أنها مؤخراً أصيبت باليأس وصارت تلوذ بالفرار حين تراني، وكم كان يهزني ويرعبني فرارها، وتذكرت الأيام التي كانت تعتبرني ملاذها الوحيد، وكيف كنا نسرح ونمرح في دار عمتي قبول، وكنت أتعجب من تعلقها بشخص متقلب الأحوال مثلي، وأقول لنفسي: "ماذا تنتظر من شخص حياته حافلة

بالبؤس والمتاعب؟". والآن بعد أن أصبحت شخصاً مهاباً لم يعد لي عندها وزنأ وحظوة! وأسأل نفسي بغباء: ترى أي شيء جعلها تنفر مني على هذا النحو؟ وعدت إلى غرفتي الوثيرة وتصفحت المرآة بعمق كما لم أفعل من قبل، تأملت تجاعيد الأمناء السابقين على وجهي الثخين القاتم، أهذا هو ذلك الوصي الفقير الذي كان ممتلئاً بوقار المقابر ووحشتها؟ لم تكن صورتي تلك الماثلة بسخرية أمام عيني الناتئتين، قضمت أظفاري حتى أدميتها، وأنا أفكر في الحال المؤسف الذي وصلت إليه، هاأنذا أبدو ظافراً ومهاباً ولكني قبيح الشكل مثل غول، بحيث تفر النساء حين يصادفنني ماراً في قارعة الطريق، وقد

برر ذلك حسن الطويل بالمهابة التي أعطاني إياها الله، قال:

–النساء في كل القرى لا يجرؤن على مواجهة الأمين، بل ويخجلن من الوقوف أمامه.

–أنا أثق بحكمتك، لعل ذلك صحيح. أرد بثقة الساذج..

لكن في هذا اليوم الذي رأيت صورتي–التي لم يسبق أن رأيتها منذ زمن–على المرآة عرفت أن حسن الطويل يخدعني، وفكرت في ما يجعل النزاهة ومنصب الأمين لا يجتمعان، وظل جسدي يرجف لفرط التأثر والغم، وانتظرت يوماً واحداً اعتبرته دهراً، ثم وقفت في طريق المرأة النافرة عند مجيئها لخدمة عمتي قبول، وما إن رأتني حتى

انحرفت وشرعت تركض فأسرعت وقبضت عليها من خصرها، وسحبتها نحو الداخل، وسألتها بغضب:

-لماذا تفرين في وجهي؟ هل أنا قبيح حتى أخيفك؟

قالت بتلعثم وهي تلهث:

-أرجوك أيها الأمين.. دعني أذهب وحسب..

-لا تخافي.. قولي ما تشعرين به.. أنا قبيح جداً، أعرف ذلك .. أرى ذلك في عينيك، قولي الحقيقة، لن أعتب عليك..

أخذت تتملص وتتحاشاني كالعدوى وهي تقول بفحيح أفعى:

–إن لم تتركني سأصرخ، لا شأن لك بي.. أنت لا تفقه شيئاً.. عد إلى المتملقين من أتباعك..

وتهاوت ذراعيّ يائستين على جانبي جسدي، لم أفلح في دحر جسدها المشدود، ووقفت جامداً أتأمل فرارها العنيد الذي قلب روحي رأساً على عقب، وحوَّل حياتي إلى الأبد، صعدت دائخاً وسقطت على فراشي مثل شيء مهمل، ولعلي غططت في خدر عميق بعض الوقت، ثم أفقت مرعوباً مما رأيت، أردت أن أتجاهل الحلم الذي يخصني، وحاولت أن أهرب من ذاكرتي التي ترسم تفاصيله الرهيبة أمام مخيلتي في أوضح صورة. ولكني أخفقت.. واسمحوا لي أن ألقيه إليكم بالتقسيط المريح، وبشكل متناثر، على

جزئيات صغيرة مثل نتف الصوف الخشن، وعلى هذا النحو لن تتأثروا كثيراً..

الفصل التاسع

ترك غياب لفقيه عبدالقادر فراغاً كبيراً في المسجد، بل لقد أصيب المصلون بالذهول من اختفائه المفاجئ، كان كثير السفر إلى المدن لتلقي العلوم الدينية، أو لحضور دورات تقيمها وزارة الأوقاف للواعظين والمرشدين، ولكنه لايذهب هكذا خلسة دون أن ينبئهم إلى أين سيذهب، وكان لديه كلب يستأنس به، وطالما ينعته بالملعون ويضربه بعنف عندما يحاول الاحتكاك بجسده، وذلك من منطلق الحرص على الطهارة، لاسيما إذا كان في طريقه لأداء الصلاة في المسجد، ومع مرور الوقت عرف الكلب المداعبات التي يسمح سيده

بها، وأي الأوقات التي يجب أن يحجم عن ذلك، وبعد موت الفقيه سمعناه في الليالي اللاحقة يطلق العواء الحزين حتى خيل إلينا أنه يود إنذار الأهالي بما حدث لسيده من مصير، وبعد أن اختفت الجثة بتدبير عمتي قبول، رأينا الكلب يمشي في أرجاء القرية الوليدة كالمسعور، مصوباً أنفه إلى الطرقات ليشم آثار صاحبه، وظل على هذا الحال لمدة عامين، حتى قاده أنفه في يوم من الأيام إلى موضع ما في المقبرة الواسعة ، وهناك مكث ينبح فوق كوم من التراب، محدقاً إلى تحت قائمتيه الأماميتين، ثم جعل ينبش التراب بسرعة حتى ظهرت الجثة، و شاهده الأهالي في اليوم التالي رابضاً إلى جوارها يهز ذيله باطمئنان، وكأن ما كان يشغله هو العثور على صاحبه وحسب،

كانت الجثة شبه متحللة، ولم يستطع أحد تمييزها إلا في ظل وجود الكلب إلى جانبها، أنا الوحيد في القرية الوليدة الذي لم يجرؤ على الوقوف طويلاً أمامها، بل فررت بعيداً عنها لأنفض ما في معدتي إلى الخارج،و كان ذلك الوجه المخيف المأكول هو جزء من الحلم الذي رأيته، وسرى الخبر إلى كل القرى والمناطق المجاورة، وأقبلت لجنة من الشعبة الجنائية في المديرية، وسرعان ما صوروا الجثة ونقلوها بحذر إلى سيارتهم لفحصها في مختبرات البحث الجنائي، وذلك للتأكد من أسباب وزمن الوفاة، ودقق أعضاء اللجنة في الحفرة التي عثر فيها على الضحية، وهناك وجدوا مسدس الفقيه عبدالقادر داخل الحفرة، وأخذوا كل شيء يعتقدون أنه يفيد في

التحقيق، وأصبت بحال من الخوف الغريزي وهم يستنطقون الأهالي عن هوية الشخص الميت، وعما يعرفونه عن ملابسات موته، وعن الأشخاص الذين يملكون دوافع لقتله، ولا أدري ما أفصح عنه الأهالي بهذا الشأن، عرفت فقط أن عزيزة لم تكتم روايتها كما كنت أتعشم، وفعلت ذلك لأنها لم تقتنع بأن زواجنا سيجعلني المتهم الأول بقتل الفقيه عبدالقادر، كانت علاقتي بها قد عادت إلى سابق عهدها بعد كثير من اللقاءات، وأرادت أن تعرف سبباً وجيهاً يمنعني من الزواج بها، حتى أنها سألتني بغضب:

–ولكنك لم تطلق النار على الفقيه..أليس كذلك؟

شل هذا السؤال المفاجئ قدرتي على الإجابة فنكست رأسي نحو قدمي، وحين أردت أن أرفعه لأجيب: "نعم، لست أنا".. أردفت بصوت حاد:

-أنت تخفي شيئاً، أرى ذلك في عينيك..

هذا ما كنت انتظره لكي أنفض السر الذي آلمني طوال عامين:

-نعم، أنا مطلق النار، خشيت أن يقتلني.

سمعتها تسأل بخفوت:

-هل يعلم أحد بذلك غيري؟

-عماد وعمتي قبول، وربما الكلب والشخص الذي دفن الجثة..

وظلت مخدرة بهذا الخبر، وتوقعت منها ردة فعل سيئة، لكنها على العكس، طلبت مني

بصوت ودود أن أعترف بما حدث قبل فوات الأوان، وهونت علي الأمر، وجعلتني أشعر بأن ما قمت به من إطلاق النار هو رد فعل طبيعي، يمكن أن يقوم به قاضي المحكمة فيما لو تعرض لموقف مماثل.. فبدأت أشعر بأن كلامها يسري في روحي كالدواء الشافي. ومن ساعتي حررت رسالة اعتراف بقتل الفقيه عبدالقادر، كانت رسالة صريحة خالية من المبررات، ثم نمت مرتاح البال والرسالة في كفي.. وكأنها رسالة عشق سأبعثها إلى امرأة فاتنة.. وحين صحوت في الصباح أدركت أني تصرفت على نحو طبيعي، و نهضت نشيطاً، واغتسلت وحلقت ذقني واعتنيت بملبسي، ثم خرجت بجسد مفعم بالحيوية، وصرت أضحك بتمرد وأسأل الأهالي عن أحوالهم، وبعد أن بعثت

الرسالة المغلقة بإحكام مع أحد المتسوقين، بحثت عن عماد كسابق عهدي لكي نقضي اليوم سوياً، ونال التعب من حسن الطويل وهو يحاول أن يقنعني أن أعود إلى ممارسة مهامي أميناً للقرية، وكان يقسم بالله أنه لن يعود إلى تغريم الأهالي من ورائي، ولن يفعل كذا وكذا.. ويذكر سلسلة من الأفعال المشينة التي كان يقترفها في السر، وصار هذا يضحكني كثيراً، بل أصبحت تصرفات الأهالي مصدر تسلية لي، ولا أدري لِمَ يتوترون حين يتغير أحدهم، حتى صديقي عماد ذهل من رجوعي المفاجئ إلى صحبته من دون تمهيد أو مقدمات، ولعله استغرب كيف استطعت أن أحطم ذلك الحاجز السميك من الكلفة التي باتت تفصلنا، وما كاد يؤدي بهم إلى الجنون هو قدرتي

المتزايدة على إيهامهم بأنني طبيعي وأن الزمن لم يتغير، وسمعتهم يتناجون بأصوات خفيضة خوفاً من جرح مشاعري، قال أبو أكرم يخاطب حسن الطويل بتوتر:

–الأمين يتصرف بشكل غريب، هل لاحظت ذلك؟

–نعم، لم يكن يتصرف على هذا النحو في البارحة..

–كيف يتغير المرء بين عشية وضحاها؟ ماذا جرى لعقله؟

–لا أدري، ربما بدأ يفكر بالعودة إلى الاهتمام في الأموات.. أشعر أنه يتصرف وكأنه في مقتبل العمر .. وهذا كل شيء..

–هل تظنون أنه يفكر في الزواج بامرأة؟

–هذا صحيح، النساء يتحدثن عن رغبته في الزواج بامرأة الفقيه عبدالقادر..

–هل يعني ذلك بأنه القاتل؟

–بلا استهبال يا أبو أكرم.. الأمين لا يمكن أن يفعل ذلك من أجل امرأة.. احذر أن يسمعك أحد. فالجدران لها آذان كما يقال..

وخرجت إليهم من خلف جدار منزل حسن الطويل، وقلت ببرود وعلى ثغري ابتسامة:

–أبو أكرم يقول الحقيقة يا حسن..

–سامحني أيها الأمين. أنا أتساءل ولا أقصد... قال أبو أكرم باضطراب.

–أنا القاتل. لقد فعلت ذلك حقاً..

–لست أنت.. أنت تسخر منا لاشك.. احترسوا أن ترددوا ذلك. قال حسن الطويل بتوتر.

وضحكت كثيراً من عدم تصديقهم، شعرت أنهم يعتقدون أني في طريقي إلى الجنون، ولكن قلبي مطمئن وموقن بسلامة ذهني، بل ويشك في سلامة عقولهم، وأمضي قدماً باتجاه حياتي الخالية من التعقيدات، بينما يقف الأهالي عاجزين عن تصنيف حالتي، ولا يجدون مبرراً — باستثناء رغبتي في عزيزة — يدعوني إلى الاعتراف بقتل الفقيه، وظل لديهم الأمل قائماً في عودتي إلى جادة الصواب، ولم يكونوا في مزاج حسن للمزاح أو السخرية، وأضحك، وأنا أسمعهم يتحدثون إلي كشخص بريء، وأقول في سري: "ماذا يحسبني هؤلاء، شخصاً معصوماً عن الزلل أم ماذا..؟"، وتجاريني عزيزة حسب هواي، أما

عمتي قبول فقد غرقت في مرضها الخاص، وسمعتها تفصح عن خشيتها من أن أقترف عملاً يثبت تورطها في إخفاء الجثة، وكانت تجد في برود أعصابي تصرفاً غيرطبيعي، وباتت تخجل من القول إن أمين القرية مصاب بالبَلَه، وفي هذه الحالة، سوف يُوصَم الأهالي على أنهم مجموعة من المعتوهين، ولو يسمعني الضابط أتحدث على ذلك النحو فلن تقوم لنا قائمة، فقد أعمى الله عيون الناس طوال عامين، أما الآن فإن الفضيحة ستكون مدوية، ولن يسلم من عواقبها أحد، وقلت لنفسي: "المسكينة، لا تعلم بأني بعثت رسالة الاعتراف قبل أيام"..

لكنها لم تكن مستهترة أو متهاونة في هذا الشأن، وقد أرادت أن تسد الفراغ الشاغر في

القرية، وتثبت أنها مازالت في تمام صحتها، وأنها رغم شيخوختها تحمل أفكاراً وجيهة، وأحس الأهالي ببعض مآثرها السابقة، لكنهم لم يكترثوا لأمرها، وهذا جعلها تغضب على فراش مرضها، وطلبت بصوت واهن أن يحضر الأهالي على وجه السرعة، فإذا كان مقدراً لها أن تموت فلا ينبغي أن تغادر دون أن تتحقق أمنيتها الأخيرة، وهي استلام القسط الأخير من ثمن الأرض، وهمست بصوت متحشرج: "عليكم جميعاً أن تدفعوا، أحضرهم إلى هنا ليسددوا ما بذمتهم، ويطَّلِعوا على وصيتي" فاستدعيت الأهالي مرغماً، ونظرنا إلى بعضنا بارتباك، ثم رمقنا بحيرة عمتي قبول التي كانت تعاني من اشتداد المرض، فسمعناها تناجي الكوابيس التي صارت تأتيها في

الآونة الأخيرة، ولم نفهم شيئاً مما تهذي به، ورغم ذلك جعلنا نرجوها أن تمهلنا بعض الوقت، وكنا نظنها ستنجو من آلامها وكوابيسها، ولكنها استمرت في الهذيان يومين كاملين، و في اليوم الثالث، وبينما نحن نحاول استدراجها إلى الحديث، أشاحت وجهها عنا شاخصة ببصرها إلى زاوية محددة في سقف العلية، كان الأهالي في حالة جدال مستميت حول كيفية سداد القسط الأخير، حتى انفجر حسن الطويل صارخاً:

–لا نملك شيئاً في منازلنا عدا النساء والأولاد، ينبغي أن تفعلي شيئاً طيباً قبل أن يداهمك الموت.

ووقفنا أمام عمتي قبول بتحدٍ لنسمع قرارها الأخير، وجاء حسن الطويل إليها، وأدار رأسها الصغير نحو الأهالي، ولكنه فوجئ بها لا

تتحرك.. فأغمض عينيها وأطبق فاها المفتوح، ثم حدجنا بنظرة زائغة، وطلب منَّا قراءة الفاتحة على روحها.. وهكذا فارقت الحياة، دون أن تتسلم القسط الأخير من ثمن الأرض، واحتشد الأهالي كما هي عادتهم عند النوائب، ونقلنا الميتة إلى المقبرة الجديدة، فكان قبرها هو القبر الأول فيها.. واستقبلت المعزين بحكم العُرف، وشعرت بالحزن رغم كونها بلغت الثمانين عاماً من العمر، ثم أخذت أبحث عما تركته وراءها، وسرعان ما جلب كاتب عقودها الوصية التي أملتها عليه قبل أيام. وجاء في وصيتها بأن تذهب نقودها وصيغتها لتشييد سور يحيط المقبرة المهملة القديمة، وأما حقولها فتذهب إلى آخر فرد في عائلتها،وهو أنا، وأشياء أخرى ذكرتها من أجل تبرئة ذمتها المالية

في الدنيا، وهي مبالغ صغيرة طلبت سدادها من أموالها لتعود لأشخاص أعاروها أدوات منزلية قبل أن تنتقل إلى الدار العتيق، وبررت ذلك بأنها لا تريد أن تطاردها لعنات الأحياء إلى قبرها، وكان هذا هو مطلبها الأخير.. وجاء اليوم الذي هب الجميع لاستقبال وفد البحث الجنائي الذي يحمل نتائج التحقيق في مقتل الفقيه عبدالقادر، وكنا قد تداعينا إليه ورتبنا له بحيث يبدو طبيعياً وغير مصطنع، وتقدم حسن الطويل بقامته القصيرة التي تتناقض تماماً مع لقب عائلته، وقد وجد نفسه فجأة مسئولاً عما يجري في القرية..

-إنكم تحاولون خداعنا بهذا المظهر المثير للشفقة، كلا، لن تنطلي علينا الحيلة.. قال رئيسا لوفد..

–أخبرونا ماذا لديكم من الأدلة.. أنتم لا تملكون شيئاً ضدنا.

قال ذلك حسن الطويل بثقة يحسد عليها، فأجاب الوافد بهدوء:

–على كل حال، إن ما وجدناه من أدلة تثبت حقيقة الانتحار.. ولكن هذه الرسالة تقول عكس ذلك..

وغاب ألق السرور في ملامح الأهالي، ونظروا بقلق بالغ إلى ورقة منشورة في كف الضابط الذي تابع:

–استدعوا أمين القرية وعماد إلى المقبرة، ليعيدا تمثيل الحادث كما وقع بالضبط، فأحدهما متهم والآخر هو الشاهد، والبقية يختبئ والعمة قبول في التراب..

وكنت وعماد في مكان قريب، فأقبلنا إلى المقبرة، وأخبرني الضابط سراً بأني قد أقضي عقوبة عام إلى عامين في السجن على الأرجح، وذلك بسبب تأخر رسالتي عن الوصول إلى المديرية.. ولا أهمية تذكر لسرد أخبار العام الذي قضيته في السجن المركزي، لأن ذلك يعيد إلي أحداث لا أود أن أتذكرها، بينما أحاول أن أنسى وأعيش لحظتي السعيدة، لحظة عودتي إلى القرية.. ولا يعنيني كيف استقبلني الأهالي، ولا كيف نظر إلي الأطفال المبهورين بشخص قاتل خرج من معتقله.. ما يعنيني هو كيف استقبلتني عزيزة، إذ كانت تنتظرني في الدار، وما إن وقعت قدماي على العتبة الخارجية حتى غادرت إلى

بيت والدها قاسم، لم تقف طويلاً أمامي كما كنت أتوقع، قالت وحسب:

-أخيراً... عدت. وسكتت.

-نعم، عدت.. قلت ذلك بابتهاج..

ولكنها لم تتوقف عن السير.. كان السؤال الذي انتظره منها هو، ماذا تنوي أن تفعل بعد العودة؟

عند الظهيرة كان في عينيها توهج الفوز وغرور حسن تقديرها للأمور..

-أرأيت كيف تنتهي الأحزان؟ قالت ذلك بخفر.. ولم أخبرها عن بطء المحاكمات والمرافعات، وعن يوم السجن الطويل السئيم، أخبرتها بأني أحاول أن أطوي صفحة الماضي إلى الأبد، وذلك لكي أبدأ من جديد، لاسيما وقد بت

وحيداً في هذا الدار.. وقلت ذلك له ا على هذا النحو:

–لابد من شريك يؤنس وحدتي في هذا الدار.

–عماد مؤانسك القديم .. أجابت مازحة.

–بل أريد أنثى للزواج.. أريدك أنت يا عزيزة.. قلت مبتسماً.

–سأفكر في ذلك...أجابت مبتسمة..

وتورد خدّاها ثم صمتت كما يليق بامرأة ريفية أن تفعل، وبعد أن صنعت طعام الغداء، أخذت تخبرني أنها لن تعود إلى الدار، لأنها تخشى على سمعتها من أن تلوثها أفواه الأهالي، وربما اعتقدوا بأني أستبيح جسد بنت الفلاح الذي يعمل في حقولي، وعليها البقاء في منزل والدها، ليبدو الأمر طبيعياً ولائقاً.. لقد أصبحت الآن محط أنظار

الناس، ويتحتم عليّ أن أتحمل تبعات أعمالي، وقد استقبلتني شائعة تقول إني لا أستطيع أن أعاشر امرأة، ويبررون ذلك بانقطاعي عن الزواج.. وتمنيت لو يمهلني الأهالي يومين، لأخطب وأتزوج.. لقد اعتزمت على ذلك قبل أن أسمع شائعتهم الخسيسة.. ها قد أصبح كل شيء على ما يرام.. اختفت الأحلام المريعة، وصار الموتى محاطين بسور قوي، تظللهم أشجار السرو.. حتى بدا شكل المقبرة زاهياً مُبْهِجاً، ومن ثم لم أعد أخشى أن أموت وأدفن فيها وحيداً.. كان صندوق عمتي قبول فارغاً من الأموال إلا من وثائق ملكية الحقول، ولكني لم أكترث.

نبذة عن المؤلف:

- من مواليد عام□□□□م. الجمهورية اليمنية، محافظة إب – القفر (قرية الحبلة).
- بك/ علوم سياسية، جامعة صنعاء.
- موظف في وزارة الثقافة.
- عضو اتحاد الأدباء والكتَّاب اليمنيين.
- ترجم له الأكاديمي الأمريكي مايكل سكوت قصص إلى الانكليزية، وتصدرت قصته (صراع حتى النهايةfight to the finish) الملف الذي خصص للأدب اليمني المترجم ونشر في مجلة بانيبال العدد(□□).

مؤلفاته:

-**الطاووسة** (رواية) من إصدارات وزارة الثقافة□□□م.

-**الباهوت** (قصص) دار عبادي للنشر □□□□م.

-**روح الحبيبة** (قصص) عبادي للنشر □□□□م.

-**الدائرة المقدسة** (رواية) عبادي للنشر □□□□م.

-**هفوة** (رواية) عبادي للنشر□□□□م.

البريد

الإلكتروني:

bassamshmsaldn@gmail.com